سيرة

متاهة الإسكافي

عبد المنعم رمضان

دار الآداب

الفهرست

الفصل الأول :	النسب الضائع	٧
الفصل الثاني :	فصل الساحرة	١٤
الفصل الثالث :	فصل الأب و مسز فاطمة	٢٤
الفصل الرابع:	المعلم الأول	٥٠
الفصل الخامس:	فصل سين سينما شين شعر واو ولد باء بنت	٧٠
الفصل السادس:	الحب الضائع	١٢٣

متاهة الإسكافي

متاهة الإسكافي

عبد النعم رمضان/ شاعر مصري

الطبعة الأولى عام 2009

ISBN 978-9953-89-111-8

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق باللغة العربية محفوظة لدار الآداب. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

All rights in Arabic language reserved to Dar al Adab. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

دار الآداب للنشر و التوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 11-4123

بيروت - لبنان

هاتف:

(01) 795135 - (01) 861633 - (03) 861632

فاكس:

009611 861633

e-mail: d-aladab@cyberia.net.lb

www.adabmag.com

عبد الله رمضان

متاهة الإسكافي

دار الآداب - بيروت

الفصل الأول:

فصل النسب الضائع

الأحصنة والكلاب والقطط والبدو والجديان والملوك والطبقات العريقة يستطيعون أن يعدّوا أجدادهم إلى ما هو أبعد من الجدّ العشرين، فيما لا أستطيع أن أعدّ أكثر من اثنين أو ثلاثة سواء جهة الأمّ أو جهة الأب، فاسم أمّي ينتهي عند خالد، و هو الجدّ الثالث، ولذا يطلقون عليهم الخوالدية، وكانت أمّي تزهو بأنهم لا

يُجبرون على الجنديّة وحمل السلاح لأصولهم البدويّة، وكانت تزهو أيضاً بجدّها المزواج الذي أضاع ميراث أبيها وإخوته و أخواته بزواجه من مصرية استولت هي وأولادها على كل ميراثه، وممّا يشاع أنه دفن صفيحة كبيرة مليئة بالذهب في مكان ما من أرضه ولم يصلوا إليها، ولأمّي حكايات أخرى، أمّا اسم أبي فهو ينتهي عند عبيد، الذي إمّا أن يكون الجدّ الثالث، وإمّا أن يكون لقباً، كأنّه جدّ بعيد، كأنّه أسطورة، القرية التي ولد فيها أبي، يُقال إنه وفد إليها ثلاثة رجال، الورداني والشوبري وعبيد، وفدوا من جهات مختلفة، وأسّسوا بيوتاً وعائلات، وأعقبوا ذرّيّة، ولقد ظلّ الورادنة والشوابرة يتنافسون على الرئاسة، واحتكر العبايدة أمور الديانة، وإن ظلّوا يرجّحون كفّة هذا أو ذاك، في أيام اختيار العمدة، كان بيتنا يمتلئ بوفود من الفرعين، كلها ترغب في الحصول على انحياز أبي، الذي سوف ستنحاز معه العبايدة كلها، والعبايدة غير العبابدة، الأولى من عبيد، والثانية من عبد، ومع ذلك فالخيول والسلاحف والنسور والببّغاوات والأشراف يستطيعون أن يعدّوا أجدادهم إلى ما بعد العشرين وآخرون يستطيعون أن يشتروا شجرة سلالة، يعلّقون نسخة منها في صالون البيت، ونسخة في صالون العمل، أمّا أنا وإخوتي فيا حسرة، أثار المازني غيرتي عندما انتسب إلى قبيلته بني مازن، وأثارت الملكة نازلي والملوك الحسن والحسين ضيقي عندما انتسبوا إلى فاطمة، فكّرت أن أفعل مثل المازني، وأفتّش عن الجدّ الأخير لي، لم أحاول الاستعانة بالسجلات والوثائق، لأن الحكومات غشاشة، لم أحاول الاستعانة بصاحب نسب منكور أو مستنكر، ففدوى عبيد أو نبيلة عبيد وغيرهما من أهل الفنّ يستعيرون أسماءهم فلا تدلّ عليهم ولا يدلّون عليها، ومكرم عبيد وعاطف عبيد وغيرهما من أهل السياسة يجيدون استخدام الأقنعة، والأسماء أحيانا أقنعة، ورؤوف عبيد قانونيّ وكاشف أرواح ويشبه سحابة تحترق، ومحمّد عبيد قائد حربي رافق أحمد عرابي وتقهقر معه وانهزم معه، والأخوان عيسى وشحاتة عبيد الأوّلان في تأليف القصص، الأوّلان في تأسيسها، الأوّلان فقط ثم الآخرون، وقبيلة بني عبيد

أشبه بأوتاد مخلوعة من أرض مات أصحابها، ولذلك لم أحاول الاستعانة بأحد من هؤلاء، ذكّرني الشاعر علي عبيد بنفسه ولأنه شاعر خامل نسيت، اعتبرتهم كلهم غرباء، فالورادنة والشوابرة وهم نسّابة حقيقيّون لا يعرفون أحداً منهم، ولم يلجأوا إليه في ملمّة، ولم يهنّئوه في مسرّة، والأحياء من العبايدة تفرّقوا في الأرض، وساحوا، وساءت أحوالهم، فأصبحوا بلا ذاكرة، أقوال عمّتي الخضراء وأحلام أبي هي ما يمكن أن أعتمد عليه، كانت عمّتي تخبرنا عن فرع من العائلة ضربه البرص منذ زمان قديم، فالتصقت الصفة بأسمائهم، عبد الباسط الأبرص، وفتحية البرصاء إلخ إلخ، وكانت تخبرنا عن فرع آخر احترف الغناء والشعر في عهود سابقة، وأن أباها كان يحفظ قصائد وألحاناً غامضة تُنسب إلى هؤلاء، ومن أقوالها إن جدّنا الأكبر أتى من بلاد بعيدة وقد تهلهلت ثيابه وتشقّق كعباه وهزل جسمه وبرزت ركبتاه وعظام ترقوته، ولولا أنه وقبل وصوله إلى أرضنا كان قد اصطحب معه امرأة صادفته، فسهرت عليه وداوته، وسقته الماء بيديها والرقّة والحنان ببقيّة جسمها، وعلّمته لهجتها، وألبسته ثياب قومها بدلاً من ثيابه الأعرابيّة، لولا ذلك لما استطاع أن يستردّ قواه وينشط ثانية، ويضجعها على الأرض، وعلى الأعشاب، وعلى حافّة الترعة، وعلى فراش صنعاه بأيديهما، ويضطجع فوقها، فتنام تحته كما يليق بامرأة مفتونة، وتغنج كما يليق بساحرة، وتلد فيما بعد كما يليق بخصوبتها، وهكذا سوف يعمّران الأرض التي تكفي حاجتيهما، المرأة ستسمّيه في غيابه العبد الصالح، والرجل سيسمّيها في كل وقت قرّة العين، قيل أن جدّنا الأكبر هرب من وباء أو فضيحة لحقت بفرع من عائلته، لذا ربّما يكون الوباء البرص، والفضيحة الغناء، وعليه فقد استمعت لنصيحة من رأوني مهموماً بنسبي، ولجأت لمعرفة سير شواذّ تمتّ بصلة إمّا إلى الوباء وإمّا إلى الفضيحة لعلّها تهديني، والأشهر بين البرصان هو الشاعر الجاهلي عبيد بن الأبرص، لأن برصه من التسمية، كان عبيد رجلاً محتاجاً فقيراً لا مال له، وهو مضريّ، حدث أن أقبل ذات يوم ومعه غنيمة له، ومعه أخته ماوية ليوردا غنمها الماء، فمنعهما رجل من

بني مالك، واستقوى، وجبه عبيداً، فانطلق عبيد محزوناً مهموماً، حتى بلغ شجرات فاستظل تحتها، ونام هو وأخته، ولما نظر المالكي إليهما، ورأى أخته إلى جواره، ألّف هجاءه في عبيد:

ذاك عبيد قد أصاب ميّا

يا ليته ألقحها صبيّا

فحملت ووضعت ضاويا

والضاويّ هو الغلام دقيق العظم قليل الجسم، ولما سمعه عبيد ابتهل إلى الله: اللهمّ إن كان فلان ظلمني فانصرني عليه، ووضع رأسه لينام ولم يكن قبل ذلك يقول الشعر، فأتاه آتٍ في المنام، بكبّة من شعر وألقاها في فيه، ثم أمره: قُم، فقام وهو يرتجز ويردّ على المالكي ويهجوه، وكان ذلك أوّل شعره، ولقد سافر عبيد في ركب من بني أسد وبينما هم يسيرون إذا هم بشجاع وهو عند العرب الحيّة أو الذكر منها أو صغيرها، يتمعّك على الرمضاء، فاتحاً فاه من العطش، فنزل عبيد، وسقى الشجاع بما معه من فضلة ماء، حتى روي وانتعش وانساب في الرمل، فلمّا كان الليل ونام القوم، ندّت رواحلهم، فلم يُرَ لشيء منها أثر، فقام كل واحد يطلب راحلته فتفرّقوا، وبينما عبيد كذلك، وقد أيقن بالموت، إذا بهاتف يهاتفه:

دونك هذا البكر منّا فاركبه

والبَكْر ولد الناقة، قال عبيد: من أنت، أجابه الهاتف: أنا الشجاع، ركب عبيد وبلغ أهله ونزل عن ركوبته، وحلّ الرحل وخلاّها، فغابت عن عينيه في التّو، اتّهام عبيد بأخته، حدث لقريب لي، وعمّي عبد الغفّار كان يصاحب الثعابين، لكنّ مقتل عبيد بدا كأسطورة تشبهها أساطير أخرى، قلت لنفسي: ليس هذا جدّي، وبسبب النفور الغامض استبعدت أن يكون جدّنا عبيد بن الحصين المعروف بالراعي النميري، وعبيد بن سالم لأنه كان ضئيلاً، وعبيد بن حنين، وعبيد بن موهب، وأبو وجزة يزيد بن عبيد، واستبعدت غيرهم، وقلت: فليكن، سأتبع سير المغنّين، فأنا أعرف عبيد بن

سريج، سمعت عنه من صاحب الأغاني، هو أحد الموالي، منزله بمكّة، آدم أحمر ظاهر الدم، لا لحية له بعارضيه، لحيته بذقنه فقط، عاش طويلاً حتى بلغ خمساً وثمانين سنة، وصلع، وتغطى بقناع على الرأس، كان مخنّثاً، أحول، أعمش، لقبه وجه الباب ولا يغضب من اللقب، غنّى في زمن عثمان، وولد في خلافة عمر، ومات في خلافة هشام بن عبد الملك، أبوه تركيّ، مات بعلّة الجذام، ابن سريج أوّل من ضرب على العود، قبله لم يعرف العرب العود، عوده من عيدان فارس، لما بعثت إليه سكينة بنت الحسين بمملوك لها يُقال عبد الملك، وأمرته أن يعلّمه النياحة، فلم يزل يعلّمه مدّة طويلة، ثم توفّي أبو القاسم محمّد بن الحنفيّة، عمّ سكينة، وكان ابن سريج عليلاً، فناح عبد الملك بدله، وظهر نوحه في غاية الجودة، فقالت النساء: هذا نوح غريض، فلُقّب عبد الملك بالغريض، والغريض هو المغنّي المجيد، أو ماء المطر، أو الطريّ، لفتني ابن سريج إلى سيرته، أما أصله التركي فأرابني، ولما سألت أختي: هل سمعتِ عمّتنا تصف جدّنا الأول بأوصاف ظاهرة، قالت: نعم، إنها سمعت ممّن يكبرونها روايات تدلّ على أنه كان أبيض البشرة، طويلاً، واسع الخطى، رأسه كبير، واصابع يديه نحيلة، وعضوه يرفع جلبابه فيكشف عن نعمة، ولم يصبه مرض، ومات مثلما تموت الأشجار، روت عمّتي عن امرأة مغنيّة يُروى أن جدّنا عشقها فانتحل اسمها وتسمّى به أو العكس، ولما شاعت فضائحها فرّ وهرب، لأنه لم يقتل امرأة قطّ، صاحب الأغاني أيضاً دلّني على عبيدة الطنبورية، وحذّرني منها، لم تعرف الدنيا امرأة أعظم صنعة منها في الطنبور، وهي آلة تشبه ألية الحَمَل، عبيدة بنت مولى يقال له: صباح، صوتها حسن، وطبعها جيد، لما مات أبوها رقّت حالتها، وقد حذقت الغناء على الطنبور فخرجت تغنّي وتقنع باليسير، وكانت مليحة مقبولة خفيفة الروح، فتقدّمت واشتهاها الناس، ويُقال إنها حلّت تكّة لباسها وسمحت ورغب فيها الفتيان، وولدت بنتاً من أوّل عشّاقها، ولما ماتت البنت طلّقها زوجها وأطلقها، لأنه كان قد حجبها واحتالت عليه كثيراً بعلّة الحمّام وغيرها من العلل، كي تلمّ بمن

تودّه ويودّها، ولما تطلّقت، خرجت وكانت تخرج بدينارين للنهار ودينارين لليل، وتعشّقت غلاماً، هي شهوانية شديدة الغلمة لا تحرم أحداً، فأفرطت وانحلّت، حتى تعلقت شاباً أفطس قبيحاً شديد الأدمة، فقيل لها: أيّ شيء رأيت فيه، فقالت: قد تمتعت بكل جنس من الرجال إلا السودان فإن نفسي تبشّعتهم، وهذا بين الأسود والأبيض، وبيته فارغ لما أريد، يأتمر بأمري إذا أردت، ووكيلي إذا أردت، وكان لها غلام اسمه عليّ، ويلقّب ظئر عبيدة، أي مرضعتها، فكانت إذا خلت في البيت وشبقت اعتمدت عليه، وقالت: هو بغل الطحّان، يصلح للحمل والطحن والركوب، الرواة لم يذكروا عاشقاً ظاهراً تعلّق بها وانتحل اسمها، لعلّ عمّتي كانت تقصد امرأة أخرى، حكى أبي، عن أبيه، أنه كان يردّد شعراً يغنّيه ولا يملّه:

كلّكم يطلب صيدْ
كلّكم يمشي رويدْ
غير عمرو بن عبيدْ

وأخذ أبي يقلّده، ومرّت أيام وهو يفعل، حتى ظنّ بنفسه الخبل، في تلك الليلة رأى أبي حلماً كأنه يدخل المسجد ويجتاز الأروقة والأعمدة ويمرّ على أبي حنيفة والحسن البصري وواصل بن عطاء حتى يصل عمود عمرو بن عبيد فيتوقّف ويسلّم وينحني ويقبّل رأسه ويده، ويجلس في حاشيته، ويسمع من يقول له: هذا هو عمرو الباب، أدّبته الملائكة وربّته الأنبياء، تذكّرت حلم أبي فسألت عن عمرو بن عبيد، قيل لي: هو عمرو بن عبيد بن باب، مولى أصله من كابل من ثغور بلخ، استقرّت عائلته بالبصرة، أبوه كان نسّاجاً، ثم شرطياً لدى الحجّاج بن يوسف، وربّما حارس سجون، فإذا رأى الناس الأب والابن أشاروا وقالوا: خير الناس ابن شرّ الناس، فيقول الأب: صدقتم، هذا إبراهيم (أبو الأنبياء) وأنا آزر، حجّ عمرو أربعين سنة ماشياً وبعيره يُقاد يركبه الفقير والضعيف والمنقطع به، وكان يحيي الليل كله في ركعة، فعل ذلك غير مرّة في المسجد الحرام، قال أبو جعفر المنصور: ألقيت الحبّ للناس فلقطوا إلاّ

عمرو بن عبيد ومعاذ بن معاذ، ثم إن معاذاً أثنى جناحيه فلقط، مات عمرو على الاعتزال، وعاش عقلاء عائلتي على التشيّع الباطن، تذكّرت فجأة أن أبي قال لي، عن أبيه الذي قال له: نسبنا يا ولدي في مكان بعيد، لا يناله طالب ولا مريد، فكّر أبي أن يخترع نسباً فنهاه أبوه، وقال له: أكثر النسب عسل طيّب ووعاء سوء، فعليك بالعسل الطيّب ودعك من وعاء السوء، قال أبي: وأين أجد العسل الطيّب؟ أجابه أبوه: في النسب الضائع، قال أبي: أتنصحني بالنسب الضائع؟ قال: أنصحك، ثم اختفى، ثم اختفيا، ثم اختفيت.

الفصل الثاني:

فصل الساحرة

ذات ليل، ذات ليل قريب، اكتشفت أنني أحبّ بعض النظام. أحبّ بعض صرامته واستغرقني أن أتخيّل شخصاً ما يهيمن على بهو فسيح أرضه بيضاء لامعة ينحني ويرسم بقلم الفولماستر الأحمر خطاً مستقيماً طويلاً ورفيعاً، ويأمر الفتاة التي تتمرّن في سبيل تحقيق رغبتها كعارضة أزياء محتملة، أن تضع قدميها الاثنتين

على الخطّ تماماً، فتضعهما واحدة أمام الأخرى، هذه هي الإمكانية الوحيدة لكي يكونا على الخطّ تماماً ويأمرها أن تمشي مطمئنة كأنها فوق حبل آمن، وتمشي مطمئنّة خاضعة للنظام الذي يخلخل جسدها، فيفور ويرفع الغطاء عن فتنته، ولذا فإنني ذات ليل قريب اكتشفت أنني أحبّ بعض النظام، أحبّ بعض صرامته.

واكتشفت أنني أفكّر أحياناً أن أقيم قليلاً تحت أقدام الأيّام الأولى. أن ألحسها، أفكر أن أضعها على الطاولة، أفكر دائماً أن أنسلّ منها كأنني آدم الذي يبحث عن أرضه الجديدة، الذي يبحث عن ميلاده الجديد ولا تعوزني أبداً المادة الخام، يعوزني فقط القدرة على تشكيلها لأنك ـ وانتبه معي ـ ماذا تفعل إذا اكتشفت أنك كنت بين الأطفال الطفل الأخير، في لهجة قاطعة: الطفل الجبان، ماذا تفعل، وانتبه معي ثانية، إذا كانت خيوط التعاليم ملفوفة حول اصابع الأمّ الحانية وتحت أظافرها وإذا كانت هذه الخيوط تتسرّب إليك بينما أصابع أمّك تهرش شعرك وأظافرها تحكّ فروة رأسك، هكذا في كل ظلام وقبل أن تنام، أعترف مرّات كثيرة أنني أدركت وخجلت من إدراكي أنها تعاليم خائنة وليست فاتنة، ولكنني كنت أخضع لها الخضوع الذي يشبه صلاة خلف إمام فأبدو للجميع كما يحلو لهم أن أبدو أو أتوارى إذا نظرت إلى نفسي، فلا أظنّني كنت تعلّمت، بعد، محبّة أن أرى نفسي، أن أتأمّلها، يكفي أنني، ولوقت طويل،عملت مسّاحاً للبيئة التي تحيطني، أحفظها دون ترتيب وأمتصّ مباهجها وإن كانت شحيحة، (أعترف أنه عندما كنا نذهب أنا والأطفال إلى شجرات التوت الثلاثة وقد كانت على حافّة البيوت تتلوها ترعة ضيّقة وطويلة حيث تمتدّ الحقول بطول الجانب الآخر من الترعة وفي مكان ما بين الحقول وقرب حدودها ينهض المسجد الجامع الذي بغير مئذنة، والذي بغير قبّة، ينهض بارزاً كأنه يستيقظ فور سماع الأذان، وأمامه قنطرة بغير درابزين، تسهّل الصعود إليه وتسهّل الخروج عموماً إلى أرض الله الواسعة، قنطرة تعلن عن نفسها حين يعبرها رجل واحد، وتعلن عن نفسها حين يعبرها الأغلبيّة، أقول كانت شجيرات التوت مزروعة

أمام بيت عريض بوّابته تتّسع لولوج ستّة رجال تساووا في المقام ولا يجوز لأحدهم أن يتقدّم الآخرين فاصطفّوا أفقياً وكانت البوّابة داكنة قليلاً وهائجة، وذات مزلاج ضخم داكن قليلاً وهائج أيضاً، والاثنان معاً خشبهما يذكّر بالشجرة التي قطعوها، ليصنعوا باباً فطرياً يحسن التزييق، وكنا جميعاً نحبّ هذا التزييق، الذي يعمل معنا وينبّهنا لننفرط كل في اتّجاه ولا نتلكّأ، فقد كنّا عندما نذهب أنا والأطفال إلى شجيرات التوت الثلاثة ننقسم حسب شجاعتنا هكذا بمنطق الأطفال، أو حسب طبيعتنا بمنطق الأمّهات، إلى ثلاث مجموعات: مجموعة صغيرة أفرادها يصعدون الشجر، ويفاجئون التوت ويسحبونه من فراشه ويذوقونه قبل أن يملأوا جيوبهم، ومجموعة أكبر يعتمد أفرادها على الزلط والحصى والحجارة في تهييج التوت وزعزعة أساساته آملين أن يسقط بعضه، وكان لا بدّ أن يسقط بعضه، ومجموعة ثالثة عزلاء بغير أسلحة، كثيراً ما كانت تضمّني وحدي، حيث أتربّص بالتوت وألتقط بعض ما يسقط، وأخشى أن يأتي صاحب الشجيرات فأستعدّ دائماً لأن أكون أول الهاربين، وفي الحواري التي تتسلّل بين صفوف البيوت والتي كانت تقضي غالباً وقبل أن تخطو خمسين خطوة من ماركة الخطوات الصبيانية إلى مساحات واسعة، اعتقدنا كثيراً أنها حصّتنا المتروكة لنا، وعلى حافّة الترعة جهة البيوت، وعلى حافّتها جهة الحقول كنّا نتعلّم أن نلعب. كنا نتعلّم كيف نكرّر ألعابنا، كيف نسحب من سراويل المكان الأدوات اللازمة، وكيف نصوغ، ولم تكن الأدوات تفنى، ولم يستطع المكان وقد كان منفلتاً بغير براويز، أن يضنّ ويعتذر عن تزويدنا الدائم بها. أشكّ الآن بل أعتقد أن هذه الأدوات هي الفلاّح الأول الذي بذر في نفوسنا الشهوة أعني شهوة الخلود وشهوة البقاء في خلوة مع المطلق. أشكّ أكثر كلما رأيت طفلي يعتاد موت ألعابه الآليّة باعتبارها ذات عمر محدود يضعها إن ماتت في ركن أتخيّل أنه يسميه قرافة الألعاب الآليّة، ويستمرّ كأنه يحفر بئره الصغيرة بأصابع تدرّبت على اصطياد الموت وقبوله، أصابع ساذجة تلعب وتعزف في حلزون لا ينتهي، حلزون من فيزيقا، ولمّا كنت

أعود إلى البيت، كانت العائلة تمتدّ من الجدّة إلى الحفيد، إلى آخره، كأننا سلالة كاملة في مكان واحد، الجدّة التي تستعيد هوجة عرابي، والتي ألواح جسمها عريضة وعالية، وأسنانها كاملة، وصوتها صاف وغير مشروخ، وذات نفس إذا طبخت، وذات قدرة إذا صادفها عود قصب أو ثمرة دوم، أو إذا صادفتها كومة بلح أحمر مغسولة ومحشودة في طبق نحاسي ذي تجويف عميق يصلح كدلالة على رحلة قام بها الأبوان إلى المرج بغية اجتلاب البلح، وكانا يقومان بمثلها إلى الشادر، بغية السمك، أو إلى المدبح، أذكر أن يوم المدبح كان يوم قنوطي، يوم الكرشة والفشّة والكوارع ولحم الرأس وما يلزمها، فلا بدّ أن البخار الذي ستضخّه الأواني العارية الرأس كان نفاذاً لأنني سأفرّ قبل أن تسخر الجدّة منّي، وقبل أن تضع لسانها أمام قدمي فأتزحلق وأسقط، وبينما أحاول أن أستسلم لسقوطي، ترفعني بيدها وتبتسم:

ـ قم يا خائب قم، اسم الله عليك.

كان يوم المدبح عند الجدّة هو يوم امتنانها تستقبله بإنائها الخاصّ وموقدها الخاصّ، وفوقهما عافيتها الخاصّة، أشك الآن بل أعتقد أنها الفلاّحة الأولى التي بذرت في نفسي الشهوة أعني شهوة الخلود وشهوة البقاء في خلوة مع المطلق، وأخجل عندما أتذكّر الشفرة في أوانها، لم أعرف خيط العلاقة بين الكوارع ولحم الرأس ولمعان وجه أمّي واستطالة ضحكتها التي ستتواطأ بعد قليل مع ضحكة أبي، وسأعجب عندما تفضّل جدّتي الانصراف إلى غرفتها مبكراً وتصرّ أن تمسك يدي وتسحبني بفتوّة. كانت غرفة جدّتي هي حديقة الروح المنسيّة كأنها مهملة تذكرها عندما يحتاج أحدنا إلى تعويذة تحميه من الشرير، وكأن هواء قبو يصدمك ثم تألفه ثم تذوب فيه، تسحبني بفتوّة وتدخل وقبل أن تتمدّد على سريرها تتشبّث كي تصبح مثل الماء الرائق وفوراً تنساب أيّامها القديمة كاللعاب على طرف لسانها وتذكر كيف كان أبي ومنذ بدأ فمه يمتلئ بالرغاوى، صاحب كرامات لكنه أضاع نفسه، أتذكّر أنه عندما كان صغيراً لم يلعب كالأطفال الآخرين، كان يجلس ويكلّم أصابعه يحرّكها

ويجذبها وينكش بها ويفردها ليطرد الأرواح العائدة من المنفى، وإذا أمسك عود ذرة جافّ غرسه في الفناء انتظرنا أن يحضر قبل غروب الشمس وانتظرنا أن تزورنا في الليل طائفة من دراويش القرى المجاورة، يضعونه في قلب دائرتهم فينطلق ويندمج ويتمايل ويترنّح عندما يغنّون بأذكارهم، وفي آخر الليل نقدّم لهم الطعام القليل الذي في الدار فيكفيهم، ويفيض، ولما استغربنا ضحك ضحكة عارمة ونظر في نفسه كانت أحلامه تنكشف عن حقائق لولا أنه لم يحتمل. كانت الأمانة أكبر من كتفيه وأصغر من لسانه فتكلّم وباح بسرّه. ألم أقل لك إنه أضاع نفسه ومشى على درجات الطفولة حتى احتلم وبلغ، ولما بلغ امتطى الحمارة وفي يده سعفة نخل أو ما شابه ورفعها كراية وأعلن أمام كل بيوت القرية أنه يريد ابنة خاله، يريد مبروكة، كانت رغبته كالسيل الذي جرفنا فزوّجناهما وفور أن منحته الابن الأوّل منحته الحزن الأول، وخرجت من الدنيا كأنها اكتفت، لكنه لم يكتف، فامتطى بعد فترة الحمارة وأعلن أمام كل بيوت القرية أنه يريد أمّ محمّد هكذا اسمها بالرغم من أنها عذراء وبكر. كان أبوها ابن عمّ أبيك وكانت رغبته أقوى من السيل فزوّجناهما ومنحته الابن الثاني ومنحته البركة أيضاً، إلا أن عمّك عبد الغفار الذي حرصت أن يظلّ واحداً من أبنائي مع أنّ أمّه كانت الغيمة التي نكحها جدّك ليروّضها فلمّا استعصت تركها وروّضني، (عمّك عبد الغفار لم تثمر فيه التربية، أخذ يصب في أذن أبيك الكلام الساخن ويحرّضه على أمّ محمد، إنها مثل زغب الحمام. إن عينيها لا تخجلان وتضحكان في عيون المارّة. إنها تخرج إلى الأفراح والأعراس، وهناك أردافها تترجرج وخصرها يضيق وعودها يصبح مثل شجرة في مهبّ أمشير، إنها تزهو وتتبختر وتحبّ الغزل)، وأبوك كما تعلم مثل الصندوق الذي يمكن أن يملأه الهواء فامتلأ وطلّقها. وفجأة اكتشف أنه في الحضر وأن الحمارة لا تصلح. بالأحرى لا توجد، فسافر مع صديق دلّه على أخته واستسلم ولما استسلم عاد بها لتصبح فيما بعد أمّك. ألم أقل لك إنه أضاع نفسه. كان مثل الصندوق الذي يمكن أن يملأه الهواء

ولكنه صندوق بغير غطاء نجومه عارية مكشوفة ووجهه مفرود لم تمرّ فوقه عربات الكتمان، ودموعه تسيل إذا حزن وريقه يسيل إذا فرح ويحتاج إلى النساء إن ارتبك ويحتاج إليهنّ إن اطمأنّ وكان عمّك مبروك هو نقيضه. عمّك مبروك هو ابني الثاني الذي لا أنسى كيف كان حمله، ومنذ الشهر الأوّل حتى التاسع ثقيلاً، والذي ما زلت لا أعرف كيف تعلّم الصمت، يجلس أغلب الوقت وإصبعه السبّابة تحفر أنفه، ولا يتكلّم، تضع في قلبه السرّ فيموت، هل هذا ما جعله ينجو من زوجته الجميلة محاسن، يا هواي عليك يا محاسن، اتّكأ مبروك عليها واتّكأ على قلبه فتزوّجها وطارد ظله حتى طرده ليفسح المكان لمحاسن، ولما اطمأنّ أنها خلفه قادها إلى العريش حيث سيعمل في الثكنات. كانت محاسن ذات أثداء وذات شعر وذات عجيزة وذات وجه معجون بالريح التي يشمّها الرجال فيهرولون خلفها، لم تكن مثل أمّك، إنني أعرف أن أمّك قادرة على تزوير عمرها يكفيها الأحمر والأبيض والترتر والساتان، إنها عجوز تزوّجت بعد أن وقفت على محطّات الانتظار طويلاً وربّما بعد أن يئست، وأعرف أيضاً أن أهلها خدعوا أباك وان البنت التي ظهرت أمامه باعتبارها العروس كانت جارتها الشابّة، نظّفوها وزيّنوها وأجبروها على إغوائه بينما العجوز فوق السقف تتلصّص من الكوّة على عريسها وتستعجل الله:

ـ يا ربّ.

حتى أصبحت بيننا تأكل كامرأة عاقر وتشرب كامرأة عاقر وتئنّ في الليل وكلّما تأخّرت خصوبتها تصاعد أنينها هكذا ولمدّة خمس سنوات دون فائدة. الحقيقة أنها استطاعت أن تصبح حجر الطاحونة في البيْت تديره في النهار وتدير دلالها قبل الفجر وأبوك يستحمّ يومياً، الحقيقة أنها ربّما بعد أن يئست من الحمل وبدأت تحبل وتلد كان ذلك بسبب الثعبان الذي انتصر على شيخوختها ووسّع أحشاءها. أذكر أنها ذات يوم وهي تنظّف أو ربّما وهي تطبخ رأت ثعباناً يتلولب فصرخت وأتينا لها بالشيخ الرفاعي. بسمل وحرّك شفتيه بتعازيم لم نفهمها، غير أن الثعبان كان يفهمها

وكان يقترب وينكمش ويتكوّم ويسكن تماماً، والشيخ الرفاعي يهتف:
ـ البشارة، البشارة، جهّزوا لي إكراميّتي، كان من الممكن أن يقتله أحدكم، إنه ثعبان ذكر، لكن أنثاه لم تكن لتهدأ قبل أن تنتقم منكم جميعاً. البشارة، اعلموا أن لكلّ بيت حارسين.

في قريتي، يحكي الشيخ الرفاعي، أنه في أحد البيوت افتقدت الأنثى وليفها، وظنّت أن أهل الدار قضوا عليه، فسعت حتى تمكّنت من خزان الماء، الزير، ونفخت فيه من سمّها، ولما انصرفت عثرت على وليفها، فأسفت لفعلتها، وعادت إلى الخزّان ودخلته وفردت جسدها على جداره الداخلي، وتمطّت، وتمطّت كثيراً حتى انفلق الجدار وتهدّم، واندفق ماؤه على الأرض ورأى أهل الدار كلبهم اللاهث، يجري نحو الماء ويرشفه، ويموت قبل أن ينتهي عطشه، البشارة، جهّزوا لي إكراميّتي، وتعالي أنت أيّتها المرأة الخائفة، اعبري فوق الثعبان سبع مرات، بسم اللهَ. اللهَ أكبر، سوف تحملين وتلدين، هكذا اتّسعت أحشاء أمّك، وحملت وولدت خمس بطون فقط، لقد حملت في بطني هذه، هات يدك تحسّسها، إنها تكرمشت، أربع عشرة مرة، أغلبها من جدّك، الذي مات عنّي وأنا تحته، وبعضها من الرجل الأوّل الذي سبقه، الرجل الذي رأى بكارتي، عاينها ثم فضّها دون استعانة بالماشطة، استعان فقط بصراخي، وبمنديل أبيض فرده ومسحني فاحمرّ، واشتعل كشاهد، كان اسمه الشواربي، الشواربي الصغير، كنت أحبّه، وكنت صبيّة، وكان يحبّني وكان أيضاً صبيّاً، الأصحّ كان بين الصبي والرجل، وأراد أبوه الشواربي الكبير أن يحتوينا معاً، وكان مطمئناً لسلطته وإرثه وعنفوان وقاره، وبكل ممتلكاته سرق ابنه، فلمّا حاول أن يسرقني اضطربت، ولما اضطربت تمادى، وغازلني، فازداد اضطرابي، ولما ازداد اضطرابي، رغب في أن يحضنني فصرخت، وفضحته، وانتهت زيجتنا أنا والشواربي الصغير انتهت لأنني كنت قويّة، لم أكن مثل أمّك، يبدأ نخيرها مع بداية الظلام ولا توقفه إلا الشمس، في الأيام الغائمة يمتدّ ويطول، ما علينا، في العريش

عاشت محاسن الجميلة مع مبروك، معاً رأيا البحر، ومعاً رآهما البحر، هاجا واندمجا وتألّقا، في العريش لم يكن لمبروك غير صديق وحيد، يأنس إليه ويستقبله ويهشّ له، يأكلان معاً، ويشربان الشاي معاً، صديق مبروك كان جنديّاً بملابس كاكيّة نظيفة، وبابتسامة، الأكيد أن ريح محاسن التي يشمّها الرجال فيهرولون خلفها قد اجّتذبته، والأكيد أنه كان يتكلّم ولا يجلس صامتاً وإصبعه السبّابة تحفر أنفه، والأكيد أيضاً أن صوته أنشأ الجسور التي وطأتها محاسن ومشت فوقها فابتعدت وابتعدت ولما ابتعدت جدّاً بدأ مبروك يحار بين العمى والبصيرة، وبدأ ينتقل من العمى إلى البصيرة فكتم أمره ودعا صديقه إلى العشاء الأخير قبل أن يسافر قريباً، وبعدما نظر الجندي إلى الأرض واستراح على الكنبة استأذنه مبروك سأذهب إلى البحر، سأقابل الصيّادين، سأشتري سمكاً طازجاً، البيت بيتك، لكنه مبروك الذي عاد فجأة ليجد محاسن الجميلة والجندي جسداً واحداً بجناحين مكسوّين بالعرق ومشحونين بالتشنّجات التي لم تكتمل بعد، لم تسترخ بعد. اكتفى مبروك الذي تكوّن في بطني بالنظر إليهما ثم تماسك وأشاح بوجهه ثم أعطاهما ظهره. لا بدّ أن جدّك كان يائساً من البشر عندما وضع ماء مبروك في رحمي ولا بدّ أنّه ظلّ يائساً في فترات الريّ التالية، في كل مرّة اعتلاني جدّك كنت أحسّ بمائه يجلجل ويزغرد داخلي، أبوك خرج من ماء الجلجلة والزغاريد، عمّاتك خرجنَ من ماء الجلجلة والزغاريد. مع مبروك أصبح ماء جدّك يشبه عمامته نظيفاً وصامتاً وأبيض، وفهمت فيما بعد كلّما كان مبروك يكبر كان إدراكي يتّسع، رأيته ينصرف بعيداً عن الجنازات، عن الأعراس، عن المقاهي، رأيته يمشي وحيداً دون خيلاء منحنياً كأن الأرض بعد قليل ستضيع منه، بسبب هذا استطاع مبروك أن يحوّل المأساة إلى حجر صغير سوف يحمله ويعيده إلى مكانه ويتركه كأنه لم يعد يخصه، ويمشي ثانية وخلفه ظلّه، انفصل جسد محاسن عن جسد الجندي تغطّت ثم انكمشت، والجندي انسدل سريعاً في بدلته الكاكيّة ومشى نحو الباب، أغلق مبروك الباب «استعدّي يا محاسن، غداً سنعود إلى مصر» محاسن لم ترفع

رأسها، لم تردّ، ستذهبين إلى أهلك وعندهم ستقيمين قولي لهم ما ترغبين قوله إلا ما حدث، احبسيه في قمقم، هيّا يا محاسن»، واستغنى مبروك عن محاسن الجميلة تركها في بيت أهلها دون تطليق دون نفقة. لا أعلم حتى الآن هل استطاع مبروك أن ينشغل عن التفكير في أثداء محاسن، في عجيزتها، في وجهها المعجون بالريح وفي شعرها الطويل وفي انكسارها وفي حفل العشاء الأخير. بعد زمان ما احتدم أهل محاسن، لماذا لا يستعيد مبروك زوجته؟ وأرسلوا الرسل ومبروك لا يتكلّم فألحّوا وأحسّ مبروك أن الأمر يجب أن ينتهي يجب أن يموت، تجشّم و انحنت روحه وزار عائلة محاسن وانفرد بأبيها «يا عمّ سأختلي بمحاسن سأعاتبها شريطة أن تسمعنا من وراء حجاب، شريطة ألّا تحسّ بك محاسن».

خلف حجاب تعاتبا، قال لها لماذا؟ قالت هي المرّة الأولى والأخيرة سامحني. عندها خرج مبروك وقبل أن يغادر احتضنه الأب وصافحه:

ـ «سترت عرضنا الله يسترك» ولم ينقضِ أسبوع حتى كانت محاسن الجميلة محمولة على أكتاف رجال لا يعلمون أن أمّها كادت لها، لا يعلمون أن أمّها دلّتها وطبخت دجاجة حشتها بالسمّ ثم قدّمتها وأطعمتها، كلي يا ابنتي لا بدّ أن تعودي إلى بيت زوجك عفيّة. هل تحبّين لأحد أن يزعم أنك جعت وهزلت في بيت أبيك؟ كانت محاسن الجميلة محمولة على أكتاف رجال لا يعلمون أن أمّ محاسن نهرت أولادها البالغين وقالت لهم:

ـ اتركوها لي، سأتصرّف.

ولا يعلمون أن عبد الغفار سيظنّ في اللحظة نفسها أنه يستطيع أن يقود مبروك، كان عبد الغفّار ماكراً وكان يشبه سعد زغلول. الشاربان هما هما والجاذبية ذاتها والذكاء هل تضحك يا ابن فاطمة؟ أنا أتذكّر هوجة سعد. أتذكّر صورته وهيئة الفلّاحين الذين هجروا حقولهم فجأة وانطلقوا حفاة وعلى أكتافهم الفؤوس يرغبون أن يقطعوا الأسلاك وقضبان السكك الحديدية. أنت لا تعرف أن عبد الغفّار كان أمهر من سعد

أنه استطاع أن يهزم العفريت، ذات يوم كان عائداً من غموضه البعيد وأحبّ أن يختصر المسافات، لذا كان لا بدّ أن يمشي في طريق مقطوعة مظلمة ومحشورة بين مزارع على الجانبين ومارّة بشجيرة الجمّيز التي تدعونها الآن جمّيزة الأجرب كانت الشجرة واقفة كحارس وحيد مكلف بمراقبة الترعة المحظور الاقتراب منها لأنها لا بدّ أن تصيد كل سنة عدداً من الضحايا.

وكان ليل هذه الطريق يمتلئ بعفاريت الذين غرقوا في الترعة والذين قتلوا بين المزارع، ولكن عبد الغفّار الذي لا يخشى القتلة والعفاريت والذي اختار الطريق المحشورة بين المزارع أحسّ بالتعب وتمنّى المعونة وقبل أن تذبل أمنيته رأى حماراً ضالاً، كان القمر غائباً في رحلته البعيدة، وكان الحمار الضالّ يمشي ويتوقّف، فاعتزم عبد الغفار أن يستخدمه حتى يصل ثم يتركه ليعود بمفرده، ولما اعتلى عبد الغفار حماره الضالّ بدأ ظهر الحمار يرتفع، ولأنه هو المجرّب أدرك أن الذي تحته عفريت شقيّ أراد أن يلعب به وأدرك أن نزوله لا يعني نجاته ففتّش جيبه وأخرج ما يشبه المخراز غرسه في ظهر الحمار خلف العنق فاستقر الحمار وقاده عمّك إلى المكان الذي يريد. يحكي عبد الغفّار أن الحمار استعطفه «يا عمّ اتركني سأعود ولن أؤذيك» ولكنه استمرّ ولما نزل عنه أحرقه بآيات القرآن، وامتلأ بالثقة».

ـ هيّا يا ابن فاطمة، أراك تغمض عينيك. قم ونَم إلى جانبي، تمدّد سأغنّي لك حتى تنام يابو الزبون الجوخ يا عاوج العمّة ولا شمروخ، ليه يا وله.

الفصل الثالث:

فصل الأب ومسز فاطمة

كأنه أبي، كنت ذلك الطفل الذي خياله أكبر من دوران رأسه، وأحلامه أكبر من دوران كلامه، أشتهي غير المتاح، وأتلمّظُ على غير المسموع، أمّي أجمل من أمّي، وأبي مثل شبكة أطرحها في الماء وأصطاد بها ما يعييني الحصول عليه، إذا غاب أبي أخفض أذني وطرف عيني وأتخيّله، أختار له مهنة ولباساً وصوتاً وعُمراً

وقلنسوة، لم أستطع أن أتخيّله قطّ على هيئة إطفائي، أو شرطي مرور، أو أحد العسكر، أو ضابطاً بسلاح الحدود أو سلاح الفرسان، الملابس الكاكية لا تظهر في خيالاتي إلا للزراية، في الأعياد كان الأطفال يزهون بارتداء ملابس ضبّاط مزيّنة بتيجان نحاسيّة ونجوم لامعة، وكنت أزهو أكثر منهم، لأنني سأبقى مع أبي في البيت، أمّي هي أوّل من أطلق على البيت اسم الجنّة، ولما صدّقتها أطلقت عليه اسم الجنة العذراء، في كل الأيّام عدا يوم الجمعة يخرج أبي إلى عمله قبل أن نصحو، جدّتي تستيقظ قبلي، ولا توقظني، كانت غرفتها الصغيرة وسريرها يتّسعان لنا معاً، وطوال النهار تتولاّنا أمّي، تأمر ولا نطيع فلا تصرخ ولكنها تكرّر الأمر، طوال النهار كنت أستحضر أبي وأتخيّله، أتخيّل أصحابه وخدمه ومخدوميه، لم يكن في بيتنا كتب أو مجلّات أو صحف، لم يكن الناس قد عرفوا التلفزيون بعد، كنت أغذّي خيالي بفحمي الداخلي وناري الداخلية، وكلاهما يكفي، كنت أغذّيه أحياناً بما لا يليق، في الليالي البيضاء يجلس أبي على الكنبة العريضة ونلتفّ حوله، لم نكن كالصيصان، ولكنه كان يصرّ أن يدعونا بالصيصان، أحياناً كان يحكي ما يروق له من حكايات مرتجلة، وأحياناً يحكي عن أبي النواس وهارون الرشيد، وعن القطط التي لها ظلال، والقطط التي بلا ظلال، وعن السيّدة أم سلمة، لماذا كان يجعلها بيضاء طويلة عريضة ذات ثديين سخيّين وحاجباها منتظمان، وعيناها ذواتا أشعّة ولمعة، أحاول الآن أن أتذكّر خيطاً واحداً يدلّ على أن غرامه بها كان مخلوطاً باشتهاء غامض، ولكنني لا أقدر، وإذا حكى عن السيّدة عائشة ارتعش صوته كأنه يستريب، وارتعشنا معه كأننا نستريب مثله، في إحدى الليالي قضى أغلب الوقت يجمع حبّات عقدها المتناثرة في مكان ما من الصحراء، ولم تكتمل الحبّات، فاضطرب ومال بوجهه ينظر إلى وجه أبي بكر الصديق بتعاطف، ولماغضّ أبو بكر بصره، نظر أبي إلى وجه عليّ، الذي أومأ فقاما معاً، ولما رجعا كان أبي ينفض يديه في يأس ويعود ويحكي لنا ما يروق له من حكايات مرتجلة، يتألّق وجهه ويلمع

فنعلم أنه اختار السيّدة التي لا يملّ الحديث عنها، واختار ابنتها، وسألنا هل تعرفون هؤلاء الناس ذوي الوجوه الحمراء والشعر الأصهب والرموش الصهباء، إنهم ينتسبون إلى سلالة خرج أسلافها في الفجر وفي صحبتهم السيّدة زينب ورأس الحسين وهربوا جميعاً إلى مصر، كنت قبل أن أنام أتخيّله يتمنّى أن يعملَ حارساً لقبر الأمّ السيدة فاطمة، ولكن القبر في أرض بعيدة، فيعمل حارساً لمقام ابنتها، أو مؤذّناً في مسجدها، أو المشرف على حماية آثارها من الضياع، كنت أتخيله ينظر إلى قدميه إذا مرّ أمام حجرتها، وإذا شاء أن يخبرها بأمر خرج صوته ضعيفاً خفيضاً من شدة الحياء، ولعلها كانت تضحك منه وتحاول أن تضاحكه، لكنه يتماسك ولا يستجيب، ويقول لنفسه: تأدّب يا مصطفى، إنها السيّدة زينب، في الليالي البيضاء كان يحكي أحياناً عن أبي زيد الهلالي، وعن أيّوب، وعن الناعسة، وعن شجرة الدرّ ذات القباقيب، وعن قراقوش، وعن الملك فاروق ونازلي وفريدة وناريمان والأمير عبد المنعم، ولكنه يعود ويحكي عن السيّدة فاطمة وعن السيّد الذي ينطق اسمه بتفخيم عالٍ: الإمام عليّ، الإمام عليّ، يقولها مرّتين أو ثلاثاً، الأصحّ ينشدها، ونحن مثل أوراق الشجر، نهتزّ ونشعر بالرهبة، كان أبي يحبّ أن يمشي وراء عليّ، يتابعه منذ طفولته حتى مقتله، ينام في فراشه، يستفيض في حكاياته عنه، كيف كان يركب معه فرسه، ويحاربان، ويقتلان بسيف واحد عمرو بن ودّ، عمرو بن معد يكرب، ويسافران إلى العراق، يدخلان الكوفة ويسكنان فيها، يستاءان من أهلها، ويدعوان لهم، يؤلّفان معاً الخطب والحكم التي جمعها نهج البلاغة، يوصيان بأسماء الأئمّة التالين: الحسن، والحسين، وعلي السجّاد، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعليّ الرضا، ومحمّد الجواد، وعليّ الهادي، وحسن العسكري، والإمام الغائب، يوصيان بمحمّد النفس الزكيّة، والسيّدة نفيسة والسيّدة سكينة، كان أبي يساند الإمام، ويمنع عنه الأذى، ويفكّر أن يترك مكّة، ويتركها، ويسافر إلى مدن بعيدة، أقربها إلى ذاكرتي بخارى وسمرقند وترمذ ونيسابور،

ويقابل في مكان ما عمر الخيّام، وفي مكان آخر زعماء الحشّاشين، وحسن الصبّاح، كان يحكي عن فاطمة بنت بري ومغامراتها الدائمة في سبيل الإيقاع بالسيّد أحمد البدوي، كانت شهوته ظاهرة، تلحظها أمّي فتضحك، كان يحكي عن الشيخ الشعراني الذي لما تزوّج فاطمة أمّ عبد الرحمن مكثت معه بكراً خمسة شهور، إلى أن رأى مناماً وقد جاءه السيّد أحمد البدوي وأخذه ومكّنه من إزالة بكارتها داخل ضريحه، وبالضبط فوق ركن القبّة الذي يوجد على يسار الداخل، وكان أن تمّ ذلك الأمر فعلاً في تلك الليلة بفضل كرامة السيّد وبركته، بعدها يتمنّى أبي أن نزوره في ضريحه بطنطا، ثم يتذكّر أن شجرة نسب السيد تتّصل بصاحبه ورفيقه في أسفاره وسياحاته، عندها يمسح وجهه براحتيه، في الليالي التي يغيب عنّا أبي، ولا يشاركنا السهر والحكايات، كنت أستعينُ على غيابه بخيالاتي عنه، أستعيد هيئته ومشيته وانكفاءه في أثناء هرولته،وأختار له مهناً، أظنّه يقوم بها، كأن يكون بائع حلوى، يلتفّ حوله الأطفال ويتعلّقون بأطراف جلبابه، وينادونه: يا عمّ يا عمّ، كأن يكون بائع ألبان، لا أعرف لماذا أضطرب وأتشاءم، إذا مسّ اللبن سواد أو وسخ، إذا مسّت طهارته قذارة ما، إذا انسكب بعضه على الأرض، فاللبن أصل الحياة، وأبي أصل آخر، لذا يليق به أن يكون بائع ألبان، كأن يكون قاضياً، آخر مهنتين اخترتهما له ولم أفلح أن أضبط جسده على مقاسيهما، كانتا مثل خرافتين، الأولى أن يكون مشرفاً على عدد كبير من العمّال، ربما في معهد علمي، أو كليّة داخليّة، أو بيت ثقافة، ربما في كليّة عسكريّة ليكون المدني بين نظاميّين، المبتهج بين مكتئبين، طلبة الكلية لا يفارقون مبناها إلا في نهاية الأسبوع، سوف يشرف على البستانيّين، الأفضل أن يشرف على عمّال نظافة ملابس الطلبة، يصرف لهم حصصهم من الصابون، ويوزّع عليهم حصصهم من المسؤوليّات، ويحاول أن يكون عادلاً، أتخيّله يشعر بخيبة عدالته، حسب المثال الذي ينشد، وعند انصرافه من العمل ظهيرة كل يوم أراه يحمل حقيبة كبيرة قماشها من التيل، مملوءة بخبز كامل أو قطع

خبز تبقّت من طعام الطلبة، سوف أراه يوزّع بعض الخبز على الجيران، وبعضه على الطيور، ولكنه أيضاً سيشعر بعذاب ضميره كأنه يسرق ما لا يحقّ له، لذا أصبحت أراه حزيناً في أحلامي، وكانت المهنة الثانية، أن يشرف على بناء سلالم البيوت، فيستطيع البسطاء الصعود إلى أعلى، كأنهم أبناء السماء، رأيت أبي سعيداً في مهنته الجديدة، سعادته لم تمنعني من إلحاقه بمهنة أخرى، كأن أتخيله تلميذاً عاري الرأس ألثغ يجلس إلى جواري ويقاسمني واجباتي، ويتفوّق عليّ في علوم الحساب، وأفوقه في علوم الجبر والفلسفة، في مرّات أخرى أتخيّله خازنداراً، وشيخ طريقة أتباعها قليلون وشديدو الولاء، وعاشقاً متفرّغاً لمطاردة النساء الجميلات، ومعلّماً للّغة العربية، وراوية للشعر، وفرداً في بطانة الشيخ علي محمود، وصديقاً للشيخ مصطفى إسماعيل، وللمغنّي محمّد عبد الوهاب، وقارئاً نهِماً لما كتبه عبد الفتاح عبد المقصود والعقّاد وطه حسين وجورج جرداق وخالد محمد خالد والإمام النسائي عن صاحبه الإمام، كأنه أبي، عمامته بيضاء تتكوّن من قطعتين، قطعة من الشاش الأبيض الناصع النظيف المزهر، أمّي تنظر إلى شال العمّة بفخر، الشال ملفوف حول طاقيّة بيضاء قطنيّة إذا كان الفصل صيفاً، وبنّيّة مغزولة من الصوف إذا كان شتاءً، هل رأيتم رجلاً يجلس على كرسي أو على سجّادة صلاة، ويغزل طاقيّة بإبرتين يمسكهما بأصابع يديه، وكرة صوف تتدحرج أمامه، قد يكون هذا الرجل أبي، قد يكون أحد رفاقه، في أحيان أخرى قد لا يكون رجلاً، إنها أمّي، ولا أحد غيرها، جلباب أبي بغير ياقة، مفتوح من أعلى الصدر، في المنتصف تماماً، فتحة الصدر تتّجه إلى أسفل إلى ما فوقْ السرّة، تحتشم فوق السرّة، تحت الجلباب صديري ظاهر، قماشه فضّيّ لامع وأزراره دقيقة وكثيرة، وبه جيب مخصّص للساعة الموصولة بكاتينة، في آخرها دبّوس فضيّ مشبوك قرب حافّة الجيب، كان أبي يحبّ أن يخرج ساعته من جيبه، فنراها، ونرى الكاتينة، ونحسّ بالوقت، في آخر عمره، كان يقرّب الساعة كثيراً من عينيه، ويمكث وقتاً أطول قبل أن يعيدها إلى مكانها في

الصديري، ثم يهزّ رأسه ويسأل أقربنا إليه: كم الساعة معك؟ ولا يدّعي أنه يضبط ساعته، في كل شبابه ورجولته وبعض كهولته لم يعتمد على عصا، ولكن في شيخوخته توكّأ على عصا خشبيّة معقوفة، لم تكن عصا زينة، كانت عصا ضرورة، أيضاً في كل شبابه، لم يعمد إلى إظهار لحيته، شاربه خفيف وعـاديّ، وعيناه ضاحكتان دائماً، دامعتان دائماً، شيخوخته مرّت بغير لحى، ولسانه ينشط في حضرة امرأة وامرأتين وثلاث، ويرتخي ومعه يرتخي كل جسمه في غيابهنّ، لم أرَه ينتعل الأحذية الجلديّة السوداء اللمّاعة إلّا إذا قرّر السفر إلى بلدته أو بلدة أحد معارفه، لا يحبّ الأحذية، يفضّل عليها الأخفاف البيضاء، كنت أستولي على بعضها خفية، واعتدت أن أنتعل أحدها بعدما كبرت، خاصّة إذا ذهبت إلى عملي، وها أنذا الآن، أجلس وحيداً، وأشعر بالخوف من اللحظات الآتية، قلبي مخطوف، وركبتاي غير مستقرّتين، خائف من كل شيء، خائف من زرّ التلفزيون أن أدوسه فلا يعمل، خائف من مياه الصرف أن تغرق حمّامي وغرفة نومي وجميع كتبي، خائف أن يعتدي الجيران العدوانيّون علينا، أو تنشز إحدى فقرات عمودي الفقري وتخرج من مكانها، خائف أن تنزلق قدمي وأسقط عن الرصيف إلى بحر الشارع وتمرّ فوق رأسي عجلات سيّارة مسرعة، لون الدم المندفق من رأسي أحمر داكن، ربّما شديد الدكنة، خائف أن تنتظرني في غرفتها امرأة أحبّها وأرغـب فيها ولا أستطيع أن أقربها، فأنا قادر على أن أجمع امرأتين في قلبي، ولا أقدر على إخفائهما تحت ثيابي، خائف أن تفاجئني أمّي بالزيارة وتعاتبني وتقول لي: لماذا يا ولد كنت نائماً في لحظات موتي؟ خائف من كل شيء، أعي ما أنا فيه، أعي قدرتي وعجزي، العالم ضيّق، العالم يضيق أكثر، منذ وقت، ربّما أمس أو أوّل أمس كان العالم فسيحاً، وكان يتّسع أكثر، كأنه أبي، كأنني أرجو أن أراه الآن، مضت عشر سنوات على موته، تحوّل موته إلى مأثرة، أذكر يوم ماتت أمّي، أذكر أمراضها، الربو وحساسيّة الصدر والحنان، عانت طويلاً من مياه بيضاء في إحدى عينيها، اليسرى، ولم تبُح

لأحد، كبرياؤها دلّها على الصمت، فأطاعته، كانت ترانا بطريقة غير مألوفة لنا، وعندما تقول: ما لك يا ابني؟ أشعر بانهيار الآلام وسقوطها على الأرض، وأضع رأسي في حجرها، فتتخلّل أناملها شعري، وتصل إلى جلد الرأس، وتلمسه برفق، تعمد أن تلمسه بالأظافر، كان الربو الذي تعانيه ينيمها جالسة، وكان أيضاً يمنع عنها النوم، فتهتف ترجو الله وتستعين به، وأحياناً تثور عليه، في مرضها الأخير عانت من التهاب رئوي، الطبيب أشار ولم يفصح، لا تذهبوا بها إلى المستشفيات، لا ترهقوها، كانت عيناه تقولان: انتظروا موتها، استعنّا على آلامها بحقن المورفين، ليلة موتها، ظللت سهران إلى جوارها حتى الفجر، كنّا في شقّة أختي، الكل نائمون ونائمات ما عدانا أنا وابن أختي وقريبه، قرب الفجر رغبت في غفلة تريحني، ورجوت ابن أختي أن يوقظني إذا صحت أمّي، بعد الفجر بقليل هزّني وقال لي: «خالي، تعيش أنت»، فركت عينيّ، دموعي ماء عكر، لقد تخلّيت عنها، لقد تركتها تموت هي التي لم تتركنا قطّ، بعد أن دفنّاها، فركت عيني، ما زالت دموعي ماء عكراً، أبلغت أبي عن عجزي وعدم قدرتي حضور المأتم واستقبال المعزّين ليلاً، غلبني الطفل الذي كنته، فغلبت به أبي، في اليوم التالي كنّا أنا وحزني وزوجتي وحقيبة سفرنا نجلس على مقعد في القطار الذاهب إلى الإسكندرية، لما ماتت أمّ صديقي محمّد عيد في النهار، ودفنها، أصرّ على مضاجعة زوجته في الليل، كأنه يقاوم، وكنت أقاوم، أمّا ميرسول الذي كان حزيناً لوفاة أمّه لحدّ أنه قتل العربي بعد انعكاس أشعة الشمس على شفرة مديته، ميرسول كان يندفع وراء عبثيّته، ميرسول ما زال يضحكني، بعد أيّام ثلاثة، كنت أنا وحزني وزوجتي وحقيبة سفرنا نجلس ثانية على مقعد في القطار العائد، قلت: فلأتدرّب على الحزم والمقاومة، انهمكت في مشاهدة مباراة كرة قدم ينقلها التلفزيون، في تلك الأثناء رنّ جرس الباب، الجارة التي شقّتها تعلونا، تنوب عن زوجها في تعزيتي، كانت بالباب الذي واربته، و كان صوت المباراة يبلغها، قالت: البقيّة في حياتك وهي تحملق في وجهي

باستغراب، كأنها تطلب تفسيراً، ظللت أبحث عن طريقة للروغان من موت أمّي، رائحة أصابعها التي سكنت بفروة رأسي، عينها اليسرى، شفتاها اللتان تتمتمان إذا أقبلت عليها وإذا أدبرت عنها، بعدها بسنوات مات أبي، تحوّل موته إلى مأثرة، أذكر في أواخر الستّينيّات، لما بدأت دراستي تتعثّر، واكتشفت أنني مأخوذ، أنني أكلّم نفسي، أنني أقطع الطريق وحدى، أن المدرسة إسطبلات مسقوفة يجب أن اختفى فيها، يجب أن أستدلّ على الملجأ الآمن، صعدت إلى المكتبة، التفتت المشرفة إلى خجلي فابتسمت لي، وسحبت عينيها كأنها تغريني بالحريّة، توقّفت مع حريّتي أمام رفّ، وأعجبني اسم ابن خفاجة الأندلسي وإبراهيم المازني، فاستعرت ديوانيهما، وفي الليل لم أستطع أن أمنع نفسي عن الذهاب إلى ساحة الخالدين بالأزهر، كنّا في رمضان، وكنت أذهب لأوّل مرّة، وشدّني الغلاف الذي رسمه جمال قطب لرواية لقيطة، فاندفعت وراء الاثنين جمال قطب ومحمّد عبد الحليم عبد الله، ثم اندفعت وراء جمال قطب مسافات أطول فأخذني من يدي إلى خان الخليلي وزقاق المدقّ والسّكريّة وميرامار، مكتبة المدرسة وجمال قطب ورفاقه، كلهم كشفوني أمام نفسي، فتماديت، استندت بذراعي على كتف ابن خفاجة الجالس أمامي وكتبت الشعر، واستندت بقلبي على ظلّ المازني وكتبت الشعر والنثر، وانصرفت تماماً عمّا لا أريده، كان المازني يمشي أمامي، وأمشي خلفه، يعرج، فأعرج، يستدير فأستدير، ويقف فأقف، كنت أحفظ وأحافظ على المسافة بيني وبينه، وكان ابن خفاجة يهبني كلمات قافيته، فأقبل هباته وأرمّم ما أكتبه، ولما استسلمت بعدهما لمارون عبّود، غالبني شعور يشبه الشعور الذي غلبني أيام المازني، وتذكّرت ما قاله أحدهما: نحن نعيش في زمن مارون عبّود، وتذكّرت ما قاله سواه، مارون عبّود في واد، والأدب الجديد في واد، مارون عبّود هو النسر المسجون، إن كان قد ظلّ ساطعاً نصف قرن، يزلزل نفسه، فماذا بقي منه؟ شخص. شخص متناقض جميل وساذج، شخص حرّ، حرّ وثائر فنّياً، نتفت ريش مارون

عبود لا لأتزيّن به، ولكن لأحشو به وسادتي، وأبقيت على ريش المازني لأنه سيطير، ذات صباح أو ذات مساء سيطير، أجلس في غرفتي، وأضع رواية في كرّاسة المدرسة، ويدخل عليّ أبي، يجدني أقرأ، وكلّما دخل، وجدني أقرأ، فيدعو لي «وفّقه يا ربّ»، كان أبي يتكلّم مع الله بالبراءة التي يسألني بها ماذا تقرأ؟ فأجيبه: أذاكر، وأعتقد أنه في أثناء سؤاله كان يحلم أحلاماً جميلة عن الفرحة التي ستفرحها أمّي عندما أنجح، وعن المستقبل الذي ينتظرني، وعن الهدايا الجميلة التي يتمنّى أن يهديها لي، لا أحد يعرف أنني أصبحت مخبولاً تماماً، وأنني في امتحانات الفصل أنجح بالكاد، أنجح على الحافّة، في السنة الثالثة الثانوية أصبحت لا أثق ثقة مطلقة بما أدرسه أو بما أفعله، أصبحت على هيئة ثائر بدائي، خصومي كثيرون، أحاربهم في السرّ بقصائد طاعنة في السنّ، بقصائد قديمة، وعمود قديم، ورويّ قديم، فيما أبي يؤمّل أن يكون القدوة الصالحة لي، كل الرجال الذين أحبّهم أبي كانوا يصلحون لأداء أدوارهم، كقدوة وضعفاء ومحبوبين، على أيّة حال، الوقت يقترب من نهاية المرحلة الثانوية، وأنا أتمشّى في كل مكان، الوقت يقترب أكثر لكن الروائيّين والشعراء لم يغلقوا حاناتهم في وجهي، وقليل منهم كانوا غريبي الأطوار فاستأثروا بي، وأبي يؤمّل في أنني الوحيد القادر على صناعة مستقبله، لا أعرف لماذا جمع في هذا المستقبل صورة شخصين، وتصوّر أنني سوف ألملم نثارهما، وأكونهما، صاحبه الإمام، وصاحبه سعد زغلول، الصورة في ذهنه جاهزة، إنها مائلة قليلاً إلى الجانب الأيمن، جهة الإمام، وهذا الصباح سوف تعلن نتيجة الامتحانات، القلق يتسرّب إليهم وهم يتناولون الأفطار، عيونهم ترمش، أختي وأمّي غارقتان في الجدّ، وأبي سيذهب بمفرده، ولكنه عاد من الطريق الجانبي، كنت قد أخفقت ونجحت بدرجات قليلة لا تكفي للانتصار على الخوف من الرسوب، في عائلتنا، أمّي تفعل كل شيء بيديها، وأبي يفعل بفمه، أبي لم يتكلّم، جمال آدم تعثّر في هذه الشهادة أكثر من مرّة، بسبب عدم قابليته، وبسبب البنات، وكرّر التجربة في مدرسة ليليّة

بشارع الفجالة، الذي نصفه الأوّل للكتب، ونصفه الآخر للسيراميك والقيشاني، وحوافّه بيوت وكنائس، جمال يذهب إلى المدرسة ويسأم، فيهجرها ويتحوّل في الشارع، حكى لي: كيف ذات مساء دخل إحدى الكنائس واستمع إلى مبشّر يدعو الحضور ويناديهم بإخلاص: مَن منكم مستعدّ لأن يفدي المسيح بروحه، بأن يهدي المسيح روحه، كان جمال مبهوراً ومرتبكاً، ذات مساء آخر، تطلّعت إلى الأبنية المضاءة جميعها، والرجال والنساء الذين يمرّون، واللافتات، كنت أبحث عن الكنيسة التي وصفها لي، ولم أصل، بيأس وقفت أمام فاترينة إحدى المكتبات، ونظرت أقرأ عناوين الكتب، اعترافات القدّيس أوغسطين، لم أقل شيئاً عن حياتي الخاصة، ربّما ليس لي حياة خاصّة، القدّيس أوغسطين يغريني، اشتريت الكتاب الذي بدا لي كسيرة لها وجهان، سيرة جسد، وسيرة قلب، كان أوغسطين يكتب في إحدى رسائله إلى صديقه داريوس: «يا داريوس، انظر لي جيّداً في هذا الكتاب، حتى لا تمدحني أكثر مما أستحق، وعندئذٍ لا تصدق ما يقوله عني الآخرون، بل ما أقوله أنا عن نفسي، يا داريوس، ادرسني جيداً، وانظر لما كنته في حقيقتي، عندما كنت معتمداً على قواي، يا داريوس»، وبعد أن أكملت قراءة الاعترافات، لم أعد محتاجاً إلى المبشّر وإلى سماعه، أحسست بقوّتي، لأنني استطعت أن أعبر الجسر الذي كنت أخاف، ففي الطفولة، كنّا نتعلّم كيف نؤذي مشاعر من يختلفون عنّا، نهتف وراء قسّ يمرّ: الكنيسة وقعت، والقسيس مات، إخص عليك يا قبطي، يا بتاع البنات، نهتف ونفرح، كأننا نلعب، وفي العرس المقام في البيت الأبيض، بيت الأقباط، كنا نهتف: صلى الله على محمّد، لنفسد الإكليل، لنفسد نصف الإكليل، والأكبر منّا، المعقّدون، الذين معاناة أحدهم أكثر سوءاً من معاناة أحدنا، كانوا ينقلون إلينا خبرات ومعارف أشبه برئات مسدودة، فنكحّ ولا نتنفّس إلّا بصعوبة، الأقباط ذوو عادات سيّئة، الأقباط ماكرون، الأقباط ضعاف قليلو العدد، الأقباط عظام زرقاء، روائح نسوتهم عطنة لأن الختان يحمي من العطن، الأكبر منّا المعقّدون

هؤلاء، لا يتبوّلون في فتحات دورات المياه، يتبولون على الأرصفة، لمّا نجحت في الابتدائية كافأني أبي برحلة الصيف إلى الإسكندرية، كنّا أربعة متلازمين، انفصلنا عن بقيّة الفريق، أبي ورجلان أسودان أكبرهما اسمه عبد الرسول، وأصغرهما بالصدفة اسمه أيضاً عبد الرسول، الأوّل حكيم، لا يستطيع أن يبدأ يومه، قبل أن يضع مضغة أفيون صغيرة جداً في فمه، يقولون تحت لسانه، والثاني، أهوج، يزهو بفتوّته الظاهرة، ويضحك فيكسو الدنيا بأسنانه البيضاء، كنّا نحن الأربعة، نبتعد عن الزحام، ونبحث عن وحدتنا وهدوئنا، نبحث عن عزلتنا مع البحر، حين مررنا أمامه، استعرضناه، رأينا أمواجه وسمعنا صوته، واخترنا أقلّ أماكنه رهبة وأكثرها هدوءاً، ونصبنا خيمتنا، فرح عبد الرسول الشابّ، خلع ملابسه ونظر إلى البحر، ودقّ بيديه الاثنتين على صدره، كانت نظرته وحشيّة، لا بدّ أن تحسده على وحشيّته وجنونه، ولمّا نزل وسبح وغاص وأوغل واتّجه إلى الداخل، وراقبناه، ثم انشغلنا عنه، حتى سمعناه يصرخ ويستغيث، كانت المياه تسحبه إلى الداخل ولا تسمح له بالخروج، وبعد أن كنّا مرحين مشرقين، صرخنا بأصوات عالية، فأتى رجل بملابس رسمية مسؤول عن أمن البلاج، وأشار إليه بيده أن يخرج في اتّجاه معين، وخرج عبد الرسول الشابّ، وضحك منه عبد الرسول المسنّ، ونبّهنا رجل البلاج إلى الراية السوداء التي تعني أن هذا المكان غير مرغوب فيه، وبين الذعر والفرح، فكّرنا أن نأكل، فكّرنا أننا جوعى، وبالبوصلة ذاتها التي قادتنا إلى المكان الأسود من البحر، بحثنا عن وحدتنا وهدوئنا، بحثنا عن عزلتنا مع الطعام، واهتدينا إلى مطعم في شارع لو أمسك فيه أحدهم إحداهنّ واغتصبها في منتصف الشارع لما وجد أحداً يمنعه، أو أحداً يتفرّج عليه، وبعد أن فرغنا، اكتشفت أننا في منطقة كنائس، أن إله المنطقة ليس إلهنا، إنه إله الآخرين، وأن الطعام ليس طعامنا، إنه طعامهم، وتقيّأت ما أكلت، كان عبد الرسول المسنّ وعبد الرسول الشابّ، مثل إفريقيّين من توجو، يصلّيان الفجر في مساجد المسلمين، وبعد الظهيرة يذهبان إلى الكنيسة

ويتلقّيان منها البركة والمعونة، وفي الليل يسهران في مقهى يهودي يغنّيان مقطعاً من نشيد الأناشيد، ويشعران مع ذلك بالانسجام والراحة، نظر الاثنان إليّ باستغراب، أبي صار مغموماً، كانت المفاجأة قاسية عليه، في المدرسة الإعداديّة، ستخصّص الإدارة فصلاً للتلاميذ المسيحيّين، ولأن عددهم أقلّ من حمولة فصل، سيكملونه ببعضنا، كنت أدخل الفصل كأنني أقضي حكماً بعقوبة أليمة، لكن عادل فيليب صار مصدر العزاء لي، كان جميلاً، وقد قام دون قصد بتلقيني بعض فنون اللياقة واللطف، له شعر ناعم، وابتسامة ساحرة، وأطراف لدنة، وجسد كالحليب، يخيّل إليك أن بشرته مصنوعة لتحمي هذا الحليب من الضياع، وفي عينيه الواسعتين خليط من الحنان والرقّة والسلوى، كان التلاميذ جميعاً يتناولون طعامهم في تآخٍ معتاد بين الفتيان في هذه السنّ، وكنت أجوع وأنتظر حتى آكل سندوتشاتي خارج الفصل، لذا فإنني عندما قرأت اعترافات القدّيس أوغسطين، أحسست بقوّة لأنني استطعت أن أعبر الجسر، الذي كنت أخاف عبوره، أذكر أنه بعد عصر يوم سبت، ولا أعرف لماذا ما زلت أذكر ذلك، بينما أتّجه إلى الجزء الخاصّ بالكتب في شارع الفجالة، فكّرت أن أكتفي بشراء الكتاب المقدّس، وبعيداً عن غرفة جدّتي، حيث الشمس تخترق النافذة الخلفية، وتلقي ضياءها فوق السرير، وتلسعني، بعيداً عنها شرعت في قراءة الكتاب، كنت أبحث عمّا هو أفضل من قراءة الروايات أو استظهار الشعر، الكتاب المقدس، تصوّر كتاباً له رائحة، إنه درب خاصّ يؤدّي إلى دروب وعرة، عند أوّل الكتاب، عند سفر التكوين، لم أستطع أن أبدأ الرحلة، إنني شخص يكره الروائح والعطور، ويفضّل عليهما روائح الطبيعة، من الرائع أن أتوقّف بعض الوقت لأشمّ رائحة أبي، وحين أذهب إلى الحقول تكون المسألة مختلفة تماماً، من نافذة جدّتي ألقيت بالكتاب المقدس، وغسلت يديّ أكثر من مرّة، كانت الرائحة تطاردني، أمّي تسألني: لماذا تكثر من غسل يديك؟ فلا أردّ، وأبي ينظر إلى وجهي متسائلاً، فلا أردّ، ولكنني الآن أشعر أنه لا شيء أفضل من قراءة اعترافات القدّيس

أوغسطين، لم أستطع أن أحمل الاعترافات معي إلى كل مكان، على الرغم من أنني كنت آخذ الكتب معي إلى كل مكان، حتى عندما أذهب إلى دورة المياه، وكان أوغسطين قد أصبح علامتي الظاهرة، فبعده حننت لرؤية المذبح وسماع الأجراس، والإنصات التامّ للجمعة الحزينة وتراتيل الميلاد، والتفاخر بأنني أدخل نشيد الأنشاد والمزامير والأمثال والتكوين وأخرج منها كأنني أتجوّل في قلبي، سأختلي بالسيّدة فاطمة وإلى جوارها مريم كأنهما أختان، وكأنني حارسهما، ولمّا يرانا أبي ينضمّ إلينا، ويقرأ بصوت مرتفع، وهزّي إليك بجذع النخلة يسّاقط عليك رطباً جنيّاً، طوال دراستي كان أبي يصاحبني، يقرأ معي، يتعلّم ما لم يتعلّمه من قبل، وإذا حرت أمام شيء لم أفهمه، يحار معي، يمسك يدي اليمنى بيده اليسرى ونذهب إلى أحد معارفه، بهجته أقوى من بهجتي إذا أزحنا الحيرة وبدّدناها، أيّام الامتحانات يذهب معي إلى مقرّ الامتحان، وينتظرني حتى أخرج، ويطمئنّ على ما فعلت، ويقيم علاقات مع آباء وأمّهات ينتظرون مثله، ظلّ يفعل ذلك حتى انتهيت من دراستي الثانويّة، حاول في الجامعة ورجوته أن يكفّ، فكفّ غير مقتنع وغير راضٍ، لكنه أجبر نفسه على الانتظار في البيت، كان يجلس مثل طائر محبوس، لا شهيّة، لا شاي، لا قهوة، لا طلبات، يجلس، وكالطائش ينظر إلى الساعة في آنات متقاربة، في الجامعة تعلّمت أن أمشي وحدي، قضيت سنتي الأولى في الزقازيق والسنوات الثلاثة التالية في القاهرة، الأصحّ السنوات الأربعة، كنت أسافر إلى الزقازيق بالقطار، ولا أغادر المحطة الكبيرة، أجلس على أحد المقاعد لأراقب الرجال والنساء وهرولتهم، أراهم يقفون بقلق، ينظرون إلى ساعة المحطة، ينصتون إلى التعاليم التي يبثّها ميكروفون المحطّة، النساء يرتدينَ لباساً أسود واسعاً وفضفاضاً ومدرّجاً ومليئاً بالطبقات، قد تدخل إحداهنّ دورة مياه المحطّة وتخرج بملابس إفرنجية ترتديها تحت ذلك اللباس، إنه المالاس، هذا هو اسمه، كنت مأخوذاً ومنهمكاً فيما يمكن أن يجعل منّي شاعراً، لذا فإن الكتب التسعة التي يجب أن

أمتحن كل أسبوع في كتابين منها، استطعت أن ألمّ أيّام الامتحانات بسبعة، والكتابان الآخران استعصيا لضخامتهما، وفي يوميْ امتحان هذين الكتابين، اكتشفت أنه ليس لديّ سوى ياقوتة ضائعة، سوى ربع عقل وربّما أقلّ، فرسمت في الهواء الذي أشقّه وأسير، رسمت حصاناً، وذهبت به إلى شارع عماد الدين، وشاهدت في إحدى قاعات السينما فيلماً ألمانياً عن دراكولا، هو ذاته الذي شاهدته في المرة الثانية، ابتهاجي بالفيلم جعلني أكثر من الدوران حوله، ومن التفكير فيه، حتى فقدت الحصان الذي أتى وضللت تماماً في النهاية، وظللت أسعى من شارع إلى شارع، ومن مقهى إلى مقهى، في سير على غير هدى، وأنهكني التعب والجوع والعطش، رأيت أنني في الجمالية، فتذكّرت لوكاندة العائلات، وصعدت إلى غرفة أحمد إمام الذي استقبلني بخفّة، سألته أن يطعمني، كان سكران، وتشاركه امرأة قال لي بهمس إنها راقصة في الليل، وفي النهار تسكن الغرفة المجاورة، وأمس فقط عادت من العمل مبكراً، ولم تنم في غرفتها، نامت في فراشي، قدّم لي كوباً من الزبادي، وشريحة من خبز القمح الأبيض، وأدرك ما أنا فيه، فتحامل وارتدى ملابسه وذهبنا معاً إلى مطعم قريب كان يأكل ويحكي عن الراقصة، ثم توقّف عن الأكل تماماً، وعن الراقصة، وأخذ يبكي ويحكي عن فوز أو فوزيّة التي تنتظره في الوادي الجديد، وسألني فجأة: هل العبّاس بن الأحتف كان يفعل ذلك مع فوز حبيبته، ولم ينتظر الإجابة، صارحني بأنه نذل وضعيف ولا يقاوم رغباته، وأسمعني آخر قصائده عن فوز، يتمنّى لو أن كل جسمه وكل جسمها شفاه ليقبّلها في كل مكان، ولما هدأ تركته، بعد فترة، ربّما بعد شهر فاجأني أبي ذات صباح، فاجأني بإيقاظي، قال لي: هيّا بنا، سألته: إلى أين، قال: إلى الزقازيق. سألته: لماذا؟ قال: يبدو أن الرجل الذي كلّفته بالكشف عن نتيجة امتحانك قد أخطأ، قلت: كيف؟ قال: يزعم أنك نجحت بغير تقدير، لأنك فشلت في مادّتين، سيضافان إليك على موادّ السنة الثانية، نظر إلى وجهي طويلاً، لم يصدّق، جلس وسكت، أبي ما زال يمارس

ما كان يمارسه، ما زال ينتظرني، أمام لجنة الامتحان، وأمام مستقبلي، وأنا لا أصدّق أنني نجحت، مكث صامتاً بعض الوقت حتى شرحت له، ثم قام، وتحرّك كأنه في غيبوبة، وقلب أحد الكراسي على وجهه وأتى ببعض مسامير وشاكوش وأخذ يدقّ حتى جرح، كان يحاول أن يتكيّف مع أحلامه المحبطة، يحاول أن يتخلّص من توتّره، ويعيد ضبط إنسانه الداخلي الذي كان مضبوطاً على تفوّقي، هو ذاك إذن، كأنه أبي، لمّا استولى العسكر على المدينة، والفلّاحون على القرى، والشواذّ على المقابر، والله على السماء، حمل أبي فرحه ويأسه، ووضعهما في حقيبة كبيرة وفكّر في السفر، لقد ألِف أن يكون الخاسر دائماً، ألِف أن يتلجلج ويرتعش ويخاف ممّا حدث وممّا يحدث وممّا سيحدث، كنت في العاشرة تقريباً، وكانت حقيبته كبيرة، والسفينة التي سيسكن قمرة من قمراتها تنتظر في مدينة أخرى، تنتظر في ميناء السويس، ومنها إلى جدّة، كان مهتاجاً يعرف أن رحلته بعد جدّة ستكون إلى يثرب وإلى مكّة، كان مهتاجاً جداً، في فترة غيابه أرسل بضع رسائل، قرأتها كلها على أمّي وأختي وبعض عمّاتي، وزهوت لأنني القارئ، وزهوت لأن أبي يعلم أنني القارئ، لذا كان يوصيني، لمّا عاد، كانت حقيبته أثقل، امتلأت بالهدايا والأقمشة والسجاجيد والمسابح والعطور والصداقات الجديدة، وكانت واجهة منزلنا قد امتلأت بالرسوم، وصوت أمّي امتلأ بالتدليل والحنان، كان صوتها يتدرّب على النداء الجديد: يا حاجّ يا حاجّ، بصوت ممطوط تبدو فيه الألف الثانية وكأنها لن تنتهي، وتبدو الكلمة بحروفها جميعاً مثل نداء غنج أو نداء استثارة، بعد عودته ظلّ أبي مكسواً برهبانيّة أخذت تزول بالتدريج، ولمّا لم تعد موجودة استعدنا صورته وألفناه، كانت أختي أيّام رهبانيّته تكتم عصيانها، ومع الألفة أظهرته، في الصباح أو في الليل تصيح: لا أحبّه، لا أريده، وهي تعني ابن عمّتي الخضراء، أبي يعرفنا، يخيّرنا ولا يجبرنا، يربّت على ظهورنا ولا يضربنا، يدلّلنا ولا يشتمنا، أبي مثل صباح مترامٍ، إذا كنّا في النهار، ومثل مساء مترامٍ، إذا كنّا في الليل، لم يفكّر في

إرغامها، تركها تستعر، تركها تلتذّ، تركها تضيع من حال إلى حال، حتى أيقن أنها جادّة، فأبلغ ابن عمّتي، ونشأت العداوة، نشأ الدم العكر، والذي لا يروق حتى بعد أن يسكن، ابن عمّتي يجترّ القصص القديمة، ويرسل رسله كل فترة، رسله لهم ألسنة من شواظ من نار، لن أسمح لأحد سواي بالزواج منها، سأقتله مَن يقترب ويصرّ، هي لي، وأنا لها، هي ليست لغيري، ابن عمّتي، النحيل، غير الوسيم، غير الوقح، لا يمكن للشرّ الكبير أن يتجاوز عنده حدود شفتين تزعمان الشرّ، وأبي النخلة يهتزّ وتسقط أثماره في الوحل، ولا يلتقطها سوى المارّة، أبي يقلق على أختي، مرّت سنوات دون أن يستقرّ طيشها على برّ، مرّت سنوات دون أن يرسو قلق أبي على كفّة ميزانه، فلا يثقل على الكفّة وينهزم أمام الطمأنينة، ذات يوم تردّد أن الشافعي سيزورنا ومعه عائلة من معارفه، الشافعي هو المخنّث العلني الوحيد الذي كنّا نعرفه، زميل أبي في عمله، صوته ناعم، وشعره ناعم، وأطراف كلماته ناعمة، إذا رآنا نسمع أغنيات فايزة، قال لنا: أنا فايز، وإذا كنا نسمع فريد قال لنا: أنا فريدة، الشافعي لا يخجل إذا داعبه أحدهم، فهو يعلن أنه لا يرتدي إلا الملابس الخفيفة وأنه يحبّ التوت البرّي الطازج، وأن ساقيه ليستا مهزولتين ويتمنّى أن يعريهما، وأن النساء أخواته، أمّا الرجال فنيران حامية، وإذا انبسط واستراح جعل قلبه نافورة ترشّ ماءها على الجميع، الضيوف المرافقون للشافعي، بينهم رجل خجول لا يتكلّم، أخواته يتكلّمنَ نيابة عنه، كان أكبر من أختي بما لا يقلّ عن خمسة عشر عاماً، أخته الصغرى أكبر منّي، كنت أنظر إليها وأحسد جرأتها، وأحمي نفسي من جمالها، انتبهت لي، فصارت عيناها تسرحان وتمرحان فوق وجوههم وفوق الأشياء والحيطان وفوق الأثاث والأرضيّات، ثم تستقرّان عندي كأنني شجرة، كأنني ظلّ، لمّا تزوّجت أختي وغادرتنا، أحسسنا بالفراغ، ولجأنا إلى فنون الملامسة، وإلى جنونها، أمّي تلمسني، وأبي يلمسني وانا أحنّ إلى لمساتهما، كانا يفهمان، وكنت الأبكم الأصمّ، الصغير على الفهم، كأنه أبي، منذ صباه اكتشفت

اسمه الثالث، اسمه الاستثنائي، العابر مثل مقيم، والمقيم مثل عابر، اسمه الذي ينبت ويظهر في لحظات غير منتظرة، في أوّل مـرّة تعرّفت على هـذا الاسم، اندهشت، رأيت أبي يرتعش ارتعاشات خفيفة، وفجائية، رأيت عرقاً يكسو جبينه، ولوناً آخر يكسو وجهه، وصوته يخرج من حنجرة أخرى، ويسرع الجميع ويلتفّون حوله، ولما حاولت أن أرتمي في حضنه، أمسكوني، فرفعت صوتي، فأسكتوني، كلهم أسكتوني، بأصابعهم التي قرّبوها من شفاههم، وبغير صوت، خشية أن يغضب الزائر، لم أسألهم عن الزائر، كانوا في غمرة غبطتهم ينحنون على يده ويقبلونها، ويقولون: أهلاً سيدي الشيخ سليم، في هذه اللحظات أصبح اسم أبي الشيخ سليم، عيونه تضحك ويضحكون معها، عيونه تتأمّل وينتظرون معها، وضع إحدى يديه في سيّالة جلبابه وأخرج الهدايا، بعد أن يرحّبوا به، يشكون إليه عللهم، يرجونه أن يساعدهم، يطلعونه على أسرارهم، أحدهم شكا إليه زوجته (سيّدة) في وجودها بأنها لا تشاركه رغباته، أبي بأسمائه الأخرى وفي أوقاته الأخرى كان يحبّ سيّدة، أمّا الشيخ سليم فسوف يضع يده على رأسها ويتمتم ثم تنزلق يده وتمرّ على كتفيها وبعض ظهرها، ويسحبها قبل أن تصل إلى أسفل، سيّدة ستنحني وتقبّل اليد، يمكث الشيخ سليم وقتاً أقلّ من نصف الساعة، ولمّا ينصرف يعود لأبي صوته الأوّل ووجهه الأوّل وإنسانيته الأولى واسمه الأوّل، كانوا أحياناً ينتبهون إلى أن الشيخ سليم لم يزرهم منذ فترة، ويتساءلون، لعلّه غاضب، كل واحد منهم يردّ عينيه إلى جوفه، ولا يرفعهما، عندما كبرت كان الشيخ سليم قد اعتاد الغياب، وكان أبي قد اعتاد أن يكون صاحب اسم واحـد، فاسمه الرسمي منذ ترك عمله، لم يعد ضرورياً، واسمه النادر اختفى منذ اختفى شيخه، وبقي له اسمه الذي ولد به، والذي نادته به أمّه وأمّي وإخوته وأخواته وأقاربه، نادوه باطمئنان: يا مصطفى، فأجابهم باطمئنان: نعم، رأيته في آنات متفرّقة يلتقي بحاجّ عائد من غربته، ويتسامران، وفجأة يصمت الحاجّ العائد، ويقول لأبي: لقد رأيتك هناك، وسلّمت

عليك، ألا تذكر، حكت لنا عمّتي الخضراء، أن أبي في طفولته كان هواء الدار، عمّاتي خمس هنّ على التوالي الصابحة، وست العائلة وهما أختا أبي لأمّ، ثم فاطمة والخضراء ومبروكة، وهنّ شقيقاته، وأعمامي اثنان، عبد الغفار وهو أخ لأب، ومبروك وهو شقيق، بين عمّاتي، فاطمة هي الأقرب، عاشت حياتها في الريف، تزوّجت هناك، وأنشأت عائلة كبيرة، وفقدت ضرساً أو نابًا مع كل مرض أو طلاق أو ترمّل يصيب أبي، وماتت هناك، حكت لنا عمّتي الخضراء، أن أبي كان صاحب سرّ، صاحب ولاية، ولكنه لم يستطع أن يكتم سرّها، فأضاعها، وضاع منها، كان إذا لعب، جلس في ركن ليداعب بأصابع يديه بعض أصابع قدميه، ربّما كان يعطي ظهره للشمس، ويستدير إذا استدارت، وينظر إلى باب الدار كأنه يأذن للداخل بالدخول، وللخارج بالخروج، أخواته كلّهنّ أكبر منه، فيما عدا المبروكة، لم تكن ولدت بعد، كنّا أنا وفاطمة نتناوب عليه، أحياناً كانت الصابحة وستّ العائلة تشاركاننا إذا جاءتا زائرتين، عبد الغفار هو الابن الضالّ الآبق، يخرج في الليل ليحرس الليل من الظلام، وإذا اختفى تصوّرنا أنه هارب بين المطر والريح والبرد أو بين الحرّ ونقيق الضفادع والخوف، المبروك رضيع خامل، لا يبكي، ولا يزعج أحداً، أذكرأننا نلفّ في الدار وندور، ونكتشف أن أباكم هو مركز دورانّنا، هو تعويذتنا، قال الفلاحون عنه عندما رأوه: هذا الولد سيكون له شأن، قال المارّة من الغرباء: احفظوه عن العيون، قالت النساء: حظوظنا سيّئة سيّئة لأنه صغير، قالت ضاربات الودع: يا بختكم، يا بختكم، حكت عمّتي الخضراء، أنه في طفولته، كان فجأة يستبدّ ويفتّش عن عود ذرة، ولما يغرسه في صحن الدار ويدور حوله، كنا نعرف ما سيحدث، سوف يأتون في الليل، أهل الطريقة والدراويش من القرى المجاورة، كنا نعرف أنه دعاهم، وفي الليل يجتمعون عندنا، ويتطوّحون ويذكرون الله ويبلغون حدّ السكر، من أول مرّة تسرّب الشكّ إلى قلوبنا، فالدار على اتّساعها ضيّقة، وهم على كثرتهم أكبر من شعب صغير، والطعام المعدّ يكفي أسرة، وأبونا وأمّنا مرتبكان،

لكننا فيما بعد أدركنا أن الأمر ليس محكوماً بوصف حالتنا، فالدار تتّسع والطعام يفيض، في آخر الليل، تهمس أمّنا إلى أبينا: المصطفى هواء الدار، فإذا أنصتنا إليهما أضافت بيقين: المصطفى هواء القرية كلها، كنّا أحياناً ننشغل عنه، ولمّا نعود إليه نجده ينظر إلى أعلى، فننظر معه إلى أعلى، ونرى ما يصفه لنا، قطعاناً من الغيوم قد توقّفت، كنا نعرف أن الغيوم ستتحرّك إذا أشار بإصبعه، كنا نعرف أنه يلعب، أنه يدفعها تارة إلى الأمام، ويدفعها تارة إلى الخلف، في هذه الآونة يمكن أن يدخل أبونا فجأة فينهرنا: اتركوا المصطفى في حاله، لم نكن نحبّ أن نتركه، وجهه في هذه اللحظات يكون مأخوذاً، يكون أبيض، أكثر بياضاً من لبن جاموستنا، سكتت عمّتي الخضراء، لأبي حدبة ليست كبيرة في الجانب الأيمن من ظهره، يقال إنها ولدت معه، كما ولد معه اسمه وابتسامته ومحبّة الخلق له، في طفولته اختاروا له أن يحفظ القرآن بدلاً من أن يفلح الأرض، كي يلتحق بالأزهر، لولا أن خانه موت أبيه، ظلّ أبي يذكر أباه ويحكي عنه الأمثولات، كان إذا استرخى، وتقارب جفنا كل عين، كأنه سينام، كأنه يحلم، ابتدأ في الحكي، وابتدأنا الإنصات، جدّكم اسمه أحمد يمتدّ نسبه إلى أنقى فرع في سلالتنا، حمل القرآن في قلبه منذ صغره، ولم يخنه، فأعفاه القرآن من الجنديّة، وأعفاه من اللغو وابتذال الكلام، أخوه الأكبر منه، كان يدعى الحسن، طمح إلى الرئاسة فأصبح شيخاً للبلد، أصبح شيخاً عاتياً، إذا مرّ عليه فلّاح يركب دابّته ولم ينزل عنها، عاقبه أشدّ العقاب، وإذا اجترأ عابر وطرف بعينه ونظر إلى إحدى نسائه، عاقبه، وكان الحسن يظلم الآخرين أحياناً، ويتمادى، فأرض الزراعة في قريتنا محدودة، ولا تتّسع، والكل يطمح أن يحوز مساحة أكبر ويعتمد لتحقيق ذلك على ماله أو سلطته أو بطشه، ولا شيء يهمّ إذا فعل، حدث ذات مرّة أن عمّي الحسن استولى على أرض فلّاح بسيط، وضمّها إلى أرضه، ولجأ الفلّاح إلى المحكمة، ولم يشهد أحد، خاف الفلّاحون من بطش الحسن، وراعى الكبراء صداقته، الشاهد الوحيد الذي تطوّع للشهادة كان جدّكم، لأنه لم يتوقّف

عن السعي وراء العدل، وعن الرغبة في إقامته على الأرض، لأبي حدبة ولدت معه، واسم مخصوص لازمه منذ غادر رحم أمّه، ولكنه عندما طلبته السلطة، كان بلا شهادة ميلاد، فقامت بتسنينه، وادّعت أنه من مواليد ١٩١٤، واستخرجت له شهادة، ولم تعترف باسمه وأعطته اسماً جديداً، ظلّ طوال عمره لا يحبّه، لم أسمع أحداً من أهله وأقاربه يناديه به، فقط أبناء الدولة هم الذين كانوا ينادونه: يا رمضان، عندما أخذته السلطة تشكّك الضابط الآمر في حدبته، فطلب منه أن يفرد ظهره، ولما لم يستطع، كفأه على وجهه، ووقف فوق حدبته يدوسها ويدبدب ليزيلها، لكن الحدبة أصرّت على البقاء، كان أبي هو الرجل الأحدب، الرجل المائل، كان يشبه كل يوم من أيّام الفصول الأربعة، لا يأمرني قطّ، يكتفي بأن يظهر، يكتفي بأن يمدّ يده ويمسك بها سراباً لا نراه، كان إذا مرضت جلس إلى جوار سريري، فإذا استيقظت في وسط الليل أو آخره، وجدته في مكانه، باسطاً ذراعيه، مرّة رأيته يبكي لأن حرارتي ارتفعت وعاندت ولم تتراجع، كان أحياناً يغنّي لينيمني، وأحياناً يجعل من فمه شجرة حكايات يصعدها، فأراه ولا أرى آخر الشجرة، ويحثّني على الصعود خلفه، يحكي فأصعد، يحكي ثانية فأصعد، ومع كل صعود أقابل أشخاصاً يحبّهم، كان يحرّضني أن أبحث عن الله، وكنت إذا وجدته أتذكّر ذنوبي جميعاً فأهرب منه، ثم أعاود البحث عنه، صوت أبي وعمامته ومسبحته ومشيته وابتساماته وحكاياته، كل هذه الأسانيد كانت تحرّضني، فأبتهج وأخاف وأبحث عن الله، لقد جعل طفولتي قطعة من طفولة السماء والأرض، هي السماء والأرض مقلوبتان، فأنا أمشي على السماء وأستظلّ بالأرض، فلا أحسن المشي ولا أحسن الاستظلال، أتخبّط، وأتحصّن بالأحلام وبالفقد، أتوكّأ عليهما،جسم أبي قوي وضعيف، جسمه قالب كبير من السكّر، لا تقدر الريح أن تهزّه، لكنّ قليلاً من الدموع يذيبه، فيما جسمي قالب من الخشب، الشمس تضعفه، والمطر يضعفه، وطول العهد يضعفه، وقصر العهد يضعفه، ولا يليق أن تدهنه بدهان، أنا لا أشبه

أبي، ولا أشبه اللهَ أبي فقط هو من يشبه اللهَ في طفولتي كنت أختبئ في الأماكن المظلمة، وأقول لنفسي: هنا لن يراني اللهَ هنا أنا الوحيد الوحيد، لكنّ نملة تتعلّق بيدي أو قدمي، فأحسب أن اللهَ أرسلها لتعيدني إلى النور، كأنه أبي، مثل كل الرجال، ومثل الموسيقيّين والشعراء، ومثل معتدلي المزاج، كان أبي يشرب فنجان قهوته بالتذاذ يضع معه ساقاً على ساق، وكان يرسلني لأشتري له البنّ الغامق، والمحوّج، أي المخلوط بعجائب أخرى، بعد أن كنت أذهب معه إلى البنّان، في الطريق إليه كان يعمد إذا رأى رجلاً يبصق على الأرض أن يقول لي: شكله قبيح، أليس كذلك، ويتجنّب أن يقول: لا تبصق مثله على الأرض، دكّان البنّان ليس بعيداً، ورائحة البنّ تشبه رائحة القصائد التي لا تموت، وكانت أمّي هي من تصنع له فنجان قهوته، وتحرص أن تأتيه بالصينيّة عليها الفنجان والكنكة النحاسية الصفراء وكوب ماء، وتقف أمامه وتصبّ القهوة من الكنكة ببطء وتقطّع حتى لا تتبدّد الطبقة الخشنة التي تتكوّن على السطح، والتي نسمّيها الوشّ، أي الوجه، المرأة التي لا تحافظ على وشّ القهوة لا تستحقّ أن يكون وجهها جميلاً، أبي يشهد لأمّي بالمهارة، وأمّي تستمتع بشهادته، وأحياناً تطلبها منه إذا سكت: لم تعجبك القهوة يا حاجّ، مع حركة في صوتها أو نظرة عينيها، كان يرتبك، ويقول لها: لن أخبرك الآن، أريد أن أخبرك فيما بعد، وعلى الفور تصبح أمّي عذراء، في الخمسين من عمر أبي، ارتفع ضغط دمه، وامتنعنا عن شراء البنّ، وحرّم عليه الطبيب أن يدخّن، ومثل أبي، وقرب الخمسين من عمري، أصابني ما جعل الطبيب يمنعني من التدخين، قلت لنفسي: هل سأكرّر حياة أبي، خاصّة أنه اعتقد أن ارتفاع ضغطه إشارة إلهية، لا بدّ أن يقرأها، واهتدى إلى أنها تعني أن عمله الذي يعمله يدخله بعض الحرام، فاتّخذ قراره ونفّذه رغم معارضة أمّي، واستقال من عمله الذي ظنّه ملوّثاً، لا نعرف كيف ظنّه هكذا، ومثله، وفي عمره اتّخذت قراري بالاستقالة من

عملي، رغم معارضة زوجتي، كان أبي يقول: من أنا، أنا ابن فلّاح من قرية صغيرة، أحلامي ليست أطول قامة من أحلام غيري، وروحي ليست أكثر ضياعاً من أرواحهم، كان أبي يقول: ما زلت أعرف كيف أبكي، والآن أقول مثله: ما زلت أعرف كيف أبكي، كنت صغيراً، عندما عاد أبي من الخارج، وقبل أن تستقبله أمّي، وقبل أن يخلع ملابسه وحذاءه، جلس على الكنبة وبدأ ينهنه، ثم نشج، ثم بكى بسخاء، وقفت أنظر إليه وأرتعش، فأكبر طائر في بيتنا يبكي، اقتربت أمّي، اقتربت بحذر، لم تنظر إليه، جلست وعيناها تحملقان في الأرض، انتظرت طويلاً، صارت نهنهاته تنخفض بالتدريج، انتظرت ولم تتكلّم، تعلم أنه هو من سيبدأ الكلام، كنّا كلنا عارفين كالعادة بسبب خروجه وأين ذهب، فمنذ استقال، وبدأ في عمله الخاصّ، كان يذهب أوّل كل شهر إلى شريكه ويسلمه ماله من حقوق، أمّي اقترحت عليه خشية أن يُسرق، أن تصنع جيبين سرّيّين محكمين في كلسونه، على أن يكونا جهة الأمام، وأن تكون لهما أزرار تفتحهما وتغلقهما، واستحسن أبي رأي أمّي، واستسلم له، لكنه في ذلك اليوم، صعد إلى الباص الذاهب إلى منطقة البساتين، الباصات أيّامها كانت وسيلة انتقال الجميع، أحسّ ببعض الزحام، أمامه يقف شابّ، وأبي بإحدى يديه يتعلّق بعمود الحديد الأفقي الموازي لسقف الباص، واليد الأخرى تسرّبت من جيب جلبابه إلى جيب كلسونه واستقرّت فوقه، كان قلقاً وخائفاً، ومع الاهتزازات اصطدم جسمه بجسم الشاب الواقف أمامه أكثر من مرّة، واصطدمت يده المستقرّة فوق الجيب بمؤخّرة الشاب أكثر من مرّة، فجأة التفت الشابّ إلى الخلف، وبكل قوته صفع أبيْ على وجهه، لما سمعنا منه الحكاية ارتمينا في حضنه وقبّلناه، ثم طلبت منا أمّي أن نخرج، أدركنا أن انكسار أكبر طائر في بيتنا في حاجة إلى الملاينة والحنوّ، وأن أصابع أمّي ستعيد أبي إلى صوابه، بعد الحادثة ظلّت عينا أبي حائرتين لعدّة أيام، ثم عادتا إلى صفائهما، وإذا تذكّر كيف ظهر الشابّ أنه يسعى إليه أصابته هستيريا الضحك، ثم يقول لها: في الحقيقة يا

فاطمة الولد يستحقّ، فتنظر إليه أمّي، وتضحك في خجل، تضحك بطيبة قلب، الآن يخيّل لي أن الباب الذي دخل منه أبي صار باباً مكسوراً، وأن الكنبة التي جلس عليها صارت كنبة الغرباء، ويخيل إليّ أنه عندما أعطانا ضعفه، لم نجد لدينا ما نعطيه له، فأعطيناه ضعفنا، وعندما بكينا جميعاً، بكينا بدموع غزيرة همّة، أمّي فقط هي من بكت بدموع قويّة، تستطيع أن ترمّم بها جزع أبي وانهدامه، ويخيّل إليّ، أننا بعد أن تركناهما معاً، سمعنا أمّي تهمس وتقول: افعل بي كل شيء، افعل بي ما تشاء، وعندما خرجت أمّـي، كانت هادئة جـدّاً وتنادي علينا بأسمائنا الصغيرة، يا هدى، يا منعم، كأنها قادمة من احتفال، في تلك الليلة ذهبت للنوم مبكراً، لم أنتبه إلى شخير جدّتي، كنت أنام وكأنه لا سماء فوقي، العالم كله أصبح بلا سماء، في الحلم رأيت أبي رجلاً عجوزاً محدودب الظهر، يرتدي فقط كلسوناً بجيبين، ووراءه تقف أمّي التي تماثله في السنّ، تقف عارية، وتحاول أن تلمس ظهره، لم يكن في الحلم غيرهما، فجأة أظلم الحلم وسمعت صوت أقفال تتهشّم، يتلوها صوت باص يجتاز شارعنا، وكلّما ظننت أنه ابتعد، سمعته يعود، فيما الظلام يشتدّ، من الحلم كنت أخاف أن أرى أبي يطرح أمّي على السرير، ويخلع كلسونه، وينطرح فوقها، خشيت و تخيَّلت أن يدخلها من الخلف ويقول لها: في الحقيقة يا فاطمة ظهرك يستحقّ، مهما يكن، في اليوم التالي، صحا أبي مبكراً وعاد مبكّراً، حين يدخل الرجل الريفي منزله، يخلع غطاء رأسه، أبـي خلع عمامته ووضعها على منضدة، ولمّا التقطتها أمّي علّقت الطاقية على الشمّاعة، وأخذت الشال لتغسله، هي لا تكتفي باستخدام الماء والصابون، تستخدم الزهرة الزرقاء، فيصبح لون الشال أبيض زهرياً، كان أبي يلبس الطاقية أوّلاً، ثم يلفّ الشال حولها بإتقان، إذا رأيت الشال غير متقن فتأكّد أنه يمرّ بيوم غير طبيعي، في طفولتي كان شعره أسود تتناثر فيه بعض شعرات بيض، عندما كبرت كان شعره أكثر بياضاً تتناثر فيه بعض شعرات سود كالحة، كان أيضاً قد أصبح الشعر خفيفاً في مواضع كثيرة

من رأسه، عمامة أبي نحترمها ولا نمسّها، أحياناً كنت أستغلّ نومه وألبسها، فتغطّي رأسي كله وجبيني وتصل إلى حافّة عينيّ، حين ترغب أمّي أن تقول له شيئاً مستتراً، كانت تتباهى وتقول: عمامتك تنطق على وجهك يا حاج، فيغيظها ويقول مستنكراً: يا فاطمة، ولكنها تجيبه: ليأخذني الله إذا كنت أكذب عليك، وحين تتشاجر معه، تنزوي ولا تنطق بكلمة، لكنك حتى ولو كنت ضعيف البصر، سترى عمود الدخان المتصاعد من مدخنتها أغلظ من ساق أختي، ربّما أكبر من قامتها، جلباب أبي بلا ياقة، الريفي لا يحبّ الياقات، يشعر أنها تخنقه، لم أره سوى مرّة واحدة يلبس الملابس الإفرنجيّة، هذه المرة دخلتْ من ضباب ذاكرتي، وأعتمتْ، و خرجتْ، عباءة أبي مشمشيّة، داكنة إلى حدّ ما، يلفّها حول كتفيه في الشتاء والبرد، وعند خروجه العادي، ويفردها حول جسمه في المناسبات، خاصّة العزاء، وتشييع الموتى، والأسفار، لأبي ضحكة تفتن النساء وتفتنني، ومشية تميل إلى الانكفاء، كأنه نبيّ، أو كأنه إمام، نصفه الأعلى ينقذف إلى الأمام قبل أن تتبعه بقيّة جسمه، عند النوم يخلع أبي جلبابه وعمامته، وملابسه الداخلية جميعاً، ويلبس جلباباً مخصّصاً للنوم، يلبسه هكذا على اللحم، صيفاً أو شتاءً، كوفيّة أبي أو تلفيحته كما كان يسميها بنية فاتحة أو غامقة، لم يكن في وسع أبي أن يصمد أبداً في صراعه مع الحياة، لأنه لم يكن ماهراً، لو لم تكن أمّي إلى جواره تعينه وتشدّ أزره، أمّي هي التي شحذته وكشفت الغطاء عن معجزاته وصنعت مآثره، ولّما ماتت تراخى وترهّل، أمّي هي روح أبي، هي أبي ذاته، عندما اصطحبني إلى منزل اليوزباشي إبراهيم ناجي وهو ابن أخت عبد الحكيم عامر، كنت في المدرسة الثانوية، لم أكن أعرف أكثر من أنني ذاهب إلى بيت رجل عظيم يعاني من محنة، فأسطورة خاله تترنّح وتوشك على الزوال، وسوف تجرّه معها، كان إبراهيم ناجي يغطّي زجاج محنته ببخار أنفاسه التي بدأت تتهجّد، كأنه يستعدّ لاعتزال الحياة العامّة، وضع إبراهيم ناجي يده على ظهري بحنان، وسألني أسئلة مألوفة، وعامل أبي برقّة رئيس معزول، وانصرفنا،

كأننا نغادر جنازته، في طريق العودة، استطرد أبي ووصف الرجل أوصافاً جعلته أطول من تمثال في ميدان، وأكثف من غابة، في تلك الفترة، كان ضحايا كثيرون يتساقطون، وكان ضحايا آخرون يلجأون إلى اللهَ، العميد أو اللواء مصطفى الشعراوي يتخلّى عن مناصبه، ويبني مسجداً كبيراً في كوبري القبّة، ويؤمّ الناس فيه، وبعد صلاة عشاء كل ليلة يبتهل بصوت عالٍ ومفجوع، بصوت مبلول، ووراءه يبتهل عشرات المئات بأصوات مبلولة أيضاً، بينهم أبي وإبراهيم ناجي، وأصبح اسم المسجد على ألسنتنا باسم شيخه، مسجد الشعراوي، إلى أن مات عبد الناصر فيما بعد، فاستولى جثمانه على المسجد، واستولى اسمه على اسم المسجد، وأصبح مسجد عبد الناصر، وامتنع عشرات المئات عن الذهاب يوم الجمعة، وامتنع المئات عن الابتهال بصوت عالٍ بعد كل صلاة عشاء، وامتنع الشعراوي وإبراهيم ناجي وأبي، أكاد أتخيّل أن الله هجر المسجد وتركه ضريحاً لعبد الناصر يستقبل فيه زوّاره من السياسيّين إلى أن توقّفوا، لمّا مات عبد الناصر، سكت أبي طويلاً، ثم تساءل هل سيصلح أنور السادات، لمّا مات السادات، غضب أبي من فرحنا، ونبهنا إلى أنه لا يجوز أن نفرح في ميّت، لمّا ماتت جدّتي، وقف أبي فخوراً في فاتحة صيوان المأتم، كان الصيوان كبيراً، مكوّناً من أربع (بواكي) كما يقولون، ومضاءً بشمعدانات ونجف، والشيخان اللذان يقرآن القرآن مضطرّان لأن ينهيا القراءة بسرعة حتى يسمحا للمعزّين بالقيام والمغادرة في مواجهة معزّين يتوافدون بكثرة، أحد المقرئين من قرّاء الطبقة الثانية بالإذاعة، أبي فخور بمأتم أمّه، في اليوم التالي كتب قائمة بأسماء من تغيّبوا، لما ماتت أمّي، تضعضع أبي، وتضعضع فخره، كأنه أبي، مات هو بسهولة، وتحوّل موته إلى مأثرة، كان إذا مرض، حتى وأنا صغير، يصرّ على أن يوصي، كأن مرضه هذا هو مرض الموت، ولكنه خدعنا جميعاً ولم يمرض قبل موته، بعد أمّي كانت شكواه الأولى من الوحشة، والثانية من الإسهال، والثالثة من أنه قد لا يصل دورة المياه قبل اندفاق البول، والرابعة من الرغبة الدائمة

في الطعام، ظلّ رشيقاً حتى آخر لحظة، لقد خدعنا جميعاً، وذهب كالعادة إلى المسجد لصلاة الجمعة، وجلس على الكرسي لأنه لا يملك القدرة على الركوع والسجود والقيام، كان يذهب إلى المسجد باعتباره السبيل الوحيد إلى الأرض الموعودة، ومثل كل الطيور الرائعة والمدن الرائعة، ومثل الرخّ، ومثل الديك الذهبي، ومثل أكبر طائر في بيتنا، انحنى رأسه على صدره في أثناء الصلاة ومات، لم يطلب شيئاً أكثر ممّا طلبه الآخرون، لم يطلب شيئاً على الإطلاق، تابوته كان يجري ويسحب حامليه ويسرع بهم، قالوا: يهرب من الدنيا، قالت عمّتي الخضراء: يلحق بأبينا، قالت أختي: يهرول نحو أمّي، قال أحد عارفيه: يهرول نحو صاحبه الإمام وصاحبته فاطمة، قال رجل غريب: هذا شيخ صالح فلترقد روحه بسلام، قالت إنعام: عاش طويلاً، يكفيه ذلك، قالت لي زوجتي: ليتك تبكي، ليتك تبكي يا حبيبي.

الفصل الرابع:

المعلّم الأول

القتلة كلهم يأتون من جهة واحدة، يرتدون ملابس بعضها من الجلد الموبّر، وبعضها خالٍ من الشعر، الحوذي الذي قادهم يضع صوته في برميل، ويغسله قبل أن يستعيده، ولمّا يكون أخصائيّو الحروب واقفين على باب الجنّة، أحملُ وحدي صوجاني، وأدخل، ويدخل خلفي القتلة كلهم.

يهبطون من لوحةٍ على جدار، وبعد أن تصبح اللوحة إطاراً فارغاً، يكونون قد جلسوا على الأرض، واستووا ينتظرون عصا المعلّم، وعلى طاولة تشبه ظلّها، ليس تماماً، اتّكأ الرجل البارع في اتّخاذ هيئة شمّاس قبل خروج بشائر الليل من مأواها، في يده اليمنى بعض الكلام الصلب والناتئ، وفوق كرسي قريب، أسماء مرميّة تشبه أشخاصاً نائمين تحت النافذة، والنافذة نصفها من الخشب المعجون بالهواء الطويل، ونصفها من سيقان الأصوات التي ماتت باكراً، والتي تعرّفوا عليها.

القتلة كلّهم مسرورون هادئون، لأنّ القائمة لم تعد تضمّ أحداً غيري ولأنني أصبحت أحبّ السرد والخيال والفانتازيا والرسم إلى جوار الشعر، ولأن مئانة الرسم محشودة بأجساد ومحظيّات ومحظيّين وأسرّة ملطخة بالدم، وبسوائل أخرى لزجة، وحرّاس تافهين، وأصوات متلاحقة اللهاث والأنين، وأنفاس داعرة ولكنها تشبه الماء الجاري، ولحوم مدخّنة فوقها حيوانات مفترسة، وشفاه تقذف الحمم، وشفاه تقذف الرغاوي، وحركات شهوانيّة، وأذرع تفتّش عن الوصال، وقرابين على شكل فتحات وقضبان، ولأن عشائي الأخير، الأصحّ قبل الأخير يجب أن يكون على مائدة أكبر من مائدة الكلمات، فإذا سقطت الكلمات من فمي، وصنعت حفرة في الأرض، وسقطت خلفها، سأتشبث بالألوان والخطوط، وأحسب أنها ستنقذني.

القتلة كلهم نظروا إلى الإنسان الضعيف الطيّب الذي تجمّعت الآلهة وقذفت حفنة من الرمل في وجهه، جعلته غير قادر على فتح عينيه، ثم صنعت الآلهة عجينة من جيوش الآلام، حوّلتها إلى كائنات على هيئة البشر، وأمرتها أن تشتبك في قتال مع الإنسان الطيّب الذي سيختلّ، ولا بدّ أن يسقط، وينبطح وجهه فوق الأرض، وفوقه الكائنات الغامضة، تعتلي ظهره، وتضغطه بركبتيها، مصرّة على إبقاء وجهه منكّساً، وقبل أن ييأس تماماً تطلق سراحه، وتفكّر أحياناً أن تعانقه، فإذا عاندها وارتدّ تنظر إليه بإجلال تامّ.

القتلة كلهم ينهشون لحم الضحايا التي تسوقني الآلهة خلفها، وتسلخ ظهري بأوامرها

الطويلة وضيوفها الدائمين، وتسلخه أيضاً باحتياجاتي وأسئلتي وخوفي من الزلل، فإذا انفتحت الأروقة ذات مساء، وانتشر الإيقاع الأخّاذ الداعي إلى ممارسة الصدق والبكارة والعفو، سيخرج الذي هو أحبّ الضحايا إلى قلبي، ويصرّ على الاعتراف، ويتعشّم أن أسجّل اعترافه باسمه، ولكنني خفت أن يتّهمني أحدهم بأنني أتوارى خلفه، وأزرع جسمي في الظلّ، وخفت أن يسمّي البراءة خطيئة، والحلم مدوّنة من مدوّنات الرعب، فلجأت إلى الحيلة، ورسمت متاهة يصعب التمييز فيها بين الراوي والبطل وبيني، وهربت من الآلهة لأقتنص المساء البعيد المماثل، وأعبر تحته، هل كان ذلك أواخر ١٩٥٩، أم أوائل ١٩٦٠، أم كانت سنة أخرى غيرهما، أذكر أن المكان كان فسيحاً جداً، ينام مع أوّل الليل ويتكوّر ويظلّ خالياً من العلامات، ويظلّ أيضاً جديراً بأن يكون تحت إشراف الله مباشرة، وعندما ذات ليلة اجتزناه أنا وأبي، اضطربت وتعلّقت بيده، وحاول أبي أن يؤنس وحشتي بالكلام، غير أن صوته تحشرج واحتبس، فتنحنح وأمرني: اقرأ معي، قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، بعدها فضّل الصمت، وأسرعت خطواته الواسعة، فانطلقت أهرول خلفه، فيما تحاصرنا وتخرج إلينا من أعماق المكان، أصوات الحشرات الليلية، رتيبة، متكرّرة، وكأنها صدى دقّات قلوبنا الهلعة، التي سرقها المكان ليصنع لنفسه كياناً مستقلاً، يرتكز على أوقات دائمة، ينشط عند الفجر وتغزوه القوافل، أكوام السبانخ والفاصوليا والبرتقال والأسماك والزبد والدجاج والإوزّ والأمشاط والحلى الزائفة والعطور المغشوشة وغزل البنات، وتغزوه أكثرية من النساء، وتظلّ حركته دائبة إلى ما بعد صلاة الظهر تقريباً، وقربْ العصر تستعيد الأرض بشرتها الداكنة وتكشف صدرها ويغادرها الباعة المتأخرّون، فرادى ومتعبين، وقبل أن يهلّ الغروب تطغى السكينة، التي في أثناء أحد تجلّياتها، اخترقت، ذهني وللمرّة الأولى محبّة الرسم والخوف منه، كنت في الثامنة، وأحاول تسمية الأشياء، والسعي خلف الله، وتقليد أبي في تجويده للقرآن والنظر بخشوع إلى السماء لأنها زرقاء وعالية. وأحاول أن

أفهم أو أطرد تلك الأصوات التي سمعتها ذات ليلة، عندما شعرت بالعطش فنهضت من فراشي ومررت بحجرة أبي وأمّي، وسمعتهما، أمّي تشهق وتئنّ، وأبي يلهث بصوت مسموع، وفي أعماقي شعور بالإثم لا أعرف من أين جاء، ظللت بعدها لعدّة أيام أتفادى النظر والمرور أمام الحجرة، وكان خيالي يصوّر لي الله على هيئة رجل كبير جداً، له لحية فضيّة تصل إلى ركبتيه، ويسكن فقط في الأماكن الخطرة، حيث بيوته التي من سعف وجذوع النخيل، بيت فوق الجبل، وبيت في أعالي البحار، وبيت آخر تحمله الرعود والبروق والزلازل والبراكين، ويحبّ كل الأماكن ما عدا الأماكن التي يرتادها الإنسان عندما يطلب المتعة واللّذة والغرام، ويفضّل من عباده الذين ينون المتاريس ويرفعون الرايات ويخافون من الدنيا، كان خيالي يصوّر لي أن الله لا يدخل حجرة أبي وأمّي، وأنه يبتعد عنهما طوال الليل حتى الصباح، ثم يصالحهما فور أن يذهب أبي إلى العمل، وتنهمك أمّي في ممارسة شؤونها، أمّي وجدّتي تبغضان عمّي الأكبر، وهو غير شقيق، هو أخ لأب، أمّي وجدّتي تسرّبان إلينا الكراهية والخوف من عمّي وعائلته، كنت في الثامنة، أبحث عن التعاليم، وكان ابن عمّي هو الشخص الذي حاول أن يقوّض سكينتي، وينتزعني من الهواء الجافّ، ويهديني في نشاط وانتشاء إلى وسيط خلاص لم أتشبّث به، اليوم عادت إليّ الحوادث الأولى، ورقصت كأنها في حفل، وتبادل المدعوّون الأنخاب، وأكثروا من ذمّ النسيان، ومديح الفنّ الذي يملك عضلتين، عضلة للامتصاص، وعضلة للإفراز، وتآلفوا مع النقد الشفّاف، وقبل نهاية الحفل تعبوا، وجلسوا في كل الأماكن الشاغرة، عندئذٍ برز ابن عمّي في مقدّمة المدعوّين، أنكرته أوّلاً، صورته اهتزتْ واصبحت بعيدة، رأيته آخر مرّة في جنازة أبي، وقبلها في جنازة أمّي، ولم تنشأ بيننا رغبة حقيقيّة في إقامة علاقة حياة، أو علاقة تليفونات، حاول ذات مرّة، واستقبلت محاولته بالصمت والتجاهل، احتجت إلى بعض الوقت للحصول على تليفونه، وبعض الجهد للاتّصال به، كنت أريد أن أمتحن حياة الذكريات، تلك اللحظات الساحرة التي تعيش في مكان ما مظلم وبه

قناة صرف تسمح بالخروج والطواف خاصّة في الليل، الذكريات التي تخاف أن تكشطها أظافر الغرباء، فتقف بعيداً عنهم، هل هي كذلك عنده، أم أصبحت منسيّة؟ هل ما زال شريكي وسوف يدّعي ملكيّتها معي، أم أنه على الجانب الآخر، كنت محموماً وأنا أطلب رقم تليفونه، فكّرت أن أخفي اسمي.

أنا: ألو.

ابن عمّي: من؟

أنا: اسمي علاء.

ابن عمّي: علاء مَن؟

أنا: أمس كانت روحي متعبة، وجسمي سائباً، بعدما نمت حلمت ببيت قديم يطلّ على خلاء.

ابن عمّي: ارفع صوتك.

أنا: كنت أنت أمام البيت، تجلس على كرسي، وأنا أنقلب واصبح طفلاً، وأجلس على ركبتيك كطفل هادئ، وترسم صورة جميلة وتهديها لي.

ابن عمّي: من يتكلّم؟ هه من يتكلّم؟

أنا: ظللنا جالسين حتى انتهيت من الرسم، فارتاحت روحي، وهدأ جسمي.

ابن عمّي: قل لي... علاء مَن؟

أنا: شكراً.

أغلقت التليفون.

استسلمت وحدي للذكريات، أصبحت مالكها الوحيد، وها هوذا ابن عمّي يظهر على الشاشة، يلبس أحياناً ملابس جنود الطيران، وأحياناً الملابس المدنيّة، عمره فوق العشرين، لا تجاعيد في وجهه، حليق وشعره مرسل وضحكته عالية، يقولون عنه إنه يجيد الكذب والخيال مثل أبيه، وأن له أخباراً مع النساء، وأن فساده في المدارس بسبب الخشبة التي لا يخفيها بنطلونه، وبسبب التخلّي الكامل عن الخجل

المنتشر في فرع عائلتنا، ويقولون إنه سيصعد ذات يوم فوق فرس تصيبه بالحمّى والتيفوس والسيلان وكلّ الأمراض، وفي بعض الأحيان كانوا يقولون هذا الكلام أمامه، فيضحك، وإذا رأى أختي يحملق طويلاً، بعد أكثر من ثلاثين سنة، سأصحو من نومي، وأخرج من غرفتي، وأخطو إلى الصالة، فأراهما أختي الأرملة والشيّخ ابن عمّي، يجلسان متجاورين، وبينهما حديث ينقطع فجأة، ويرتبكان، لم تكن الأرملة قادرة على إخفاء بؤسها لكن الشيخ انتقل بمهارة إلى حديث جديد، تركتهما، وعبرت، سأعبر الآن أيضاً، وأعود قابضاً على سارية الأحلام، والنوستالجيا، حيث أختي تحمل خمس عشرة سنة، تحملها في شفتيها ونهديها وشعرها وردفيها وساقيها وعينيها الجائعتين، فيما بعد سأكتشف أنه جسدها الساخن أتعبها كثيراً، وأنها كانت تسعى دائماً لإنقاذه من الغليان، وأنها أجادت الوسائل والألاعيب، وأجادت الاستمتاع، ولذا أظنّ أنها كانت تشجّع ابن عمّي على النظر إليها طويلاً، إنها تملك الجرأة وتحبّ نظرات الإعجاب التي يرمقها بها الرجال، ومع أنني لم أفهم أغلب ما يحدث حولي، إلا أنه داخلني شعور أن ابن عمّي يزورنا من أجلها، وأنه لا يخاف الله، ولا يحبّه، وأن الله أيضاً لا يحبّه، وكذلك أختي، لم أستطع أن أخاصمهما، ولكنني استطعت أن أبتعد عنه كلما أتى لزيارتنا، كان لحوحاً، يتتبّعني، يمشي خلفي في جهات منزلنا البسيط، يدخل الغرفة التي أذاكر فيها، يقف مثل إله صغير، ويهديني بعض الصور التي يرسمها، وبعض أقلام التلوين، وإذا تمادى، انتزع كرّاسة من كرّاساتي، وفتحها، وانتزع قلمي الرصاص، وكأن شيئاً لا يحدث رسم حمامة صغيرة، تحيطها صحراء، وفي أقصى الرمل جذوع أشجار نصبت فوقها شبكة.

ـ هل تعرف ما الذي تريده الحمامة، إنها مثلك تماماً تبحث عن الطعام والاهتمام والدفء، ولن تجدها إلا في شباك شيخ الصيّادين.

ـ ومن شيخ الصيّادين؟

ـ رجل غريب، لا عمر له، يحبّه الأطفال وينادونه: يا عمّ.

ـ هل تعرفه؟

ـ سآخذك، ونذهب إليه، وأعلّمك كيف تحبّه.

ـ ثم تتركني.

ـ لا تخف سأحميك دائماً.

بعدها يروي بعض الحكايات، حكايات غامضة ومحكمة وأكثر جمالاً من الحقائق ولا يأبه بفتوري، أحياناً يبالغ في إظهار حنوّه، وأحياناً يقسو، ويطالبني أن أطفو فوق نفسي، ربّما أسبح أو ربّما أطير، وإلّا فإنني سيعاقبني اللّه ويمسخني في صورة حشرة، كنت مع ذلك أقارنه بأبي، وأقول لنفسي: أبي عاطفي وصريح وطيّب، وإخوته وأخواته وأقارب آخرون يؤكّدون أنه من أهل الحظوة، وأن جلبابه طاهر وروحه ساحرة، فأحب أبي أكثر، وأكره نظرات ابن عمّي، خاصّة عندما كانت أختي تذهب لأداء غرض ما، تختال وتهتز كأنها تخشى أحداً سيلمسها، فتنصرف عيناه خلف عجيزتها باستغراق وإمعان، الحقيقة كانت عجيزتها جميلة، وكنت أعجب عندما تعبر الشارع وينظر الآخرون إليها، ويضغطون شفتهم السفلى أو يبتلعون ريقهم ويصفرون، دون ملل، ظلّ يتتبّعني، يزعم أن شيخ الصيّادين ينتظرنا، وينشط في إقناعي، حججه بسيطة تجعل الإنسان الصغير لا يملك القدرة على الروغان، بل يرغب في التهيّؤ والاستعداد والشروع فوراً، اتّفقنا أننا سنبدأ عندما نزورهم، في موعد الزيارة فقدت حماستي، لولا أن أختي احتضنتني وغسلت وجهي وشجّعتني وأغدقت عليّ حنانها، فلم أستطع أن أقاومها، بيت عمّي أكبر من بيتنا، وأكثر اتّساعاً، في صدارة غرفة الجلوس صورة كبيرة مرسومة بالفحم، يظهر فيها عمّي وكأنه سعد زغلول العائد من المنفى، ولأنني لم أحمل ودّاً كبيراً لعمّي، اكتشفت أنني لا أحمل ودّاً كبيراً لسعد زغلول، من غرفة جانبيه خرج ابن عمّي يرتدي قميصاً خفيفاً وبنطلوناً واسعاً، جلس دقائق، ولمّا نهض فرك في مداعبة أزعجتني حلمة أذني بأصابعه القاسية، ثم سحبني من يدي واستأذن في الخروج، كانت معه أشياء

أثارت فضولي لأنه أخفاها. بعد قليل رأيت هذه الأشياء، أهمّها ريشة داكنة اللون قليلاً شعرها لامع يبدو وكأنه لم يستخدم كثيراً من قبل، وجسمها أقلّ لمعاناً وأكثر امتلاءً وكأنه ليس أملس، هذه المرّة، والمرّتين التاليتين، لم أجرؤ أن أمسك الريشة على الرغم من أنه لم يمنعني، وأيضاً على الرغم من أنني في أحيان كثيرة تخيّلت أنني أحيطها بكلتا يديّ، أو أنني وكما أفعل مع أشيائي الصغيرة جميعاً أضعها بين شفتيّ وأضغطها بأسناني، صحيح أن ابن عمّي كان يستخدمها أو يحفظها في جيبه العلوىّ فينبعج الجيب ممّا يدلّ عليها، الآن أدرك أن أحد الأشياء التي أخفاها ولم أستطع أن أكتشفها، كان طيف أختي، عندما أصبحنا خارج البيت، سألني: أين الورقة؟

اعتدلت، كنت أخفيها، الورقة بيضاء نظيفة ومن النوع المقوّى، بعض مواضعها تكرمشت قليلاً، لذا نظر إليّ كأنه يلومني وطلب منّي أن أقترب، ولما اقتربت جدّاً، انحنى عليها، وأخذ يفردها بحنوّ وعزم، وما هي إلّا دقائق حتى لانت أصبحت مفرودة وجاهزة، وقفنا خارج الباب، أمامنا الخلاء، ونطف ظلام لم ينتشربعد، تركني ودخل البيت، ثم عاد مسرعاً، يحمل كرسياً له سيقان غليظة وقويّة، ولما جلس واستقرّ، أجلسني فوق ركبتيه، كان يعاملني كطفل أثير، الآن أتصوّر أنه كان يعاملني كرسول غرام دون أن أدري، وضع الورقة البيضاء فوق حجري، أمسكها بيده اليسرى التي عملت كحامل، والتفّت يده اليمنى لتشرف على الورقة وتباشرها، كنت ألاحظ يده مشدوهاً، إنها مكسوّة بالشعر والعرق والارتباك، عندما خالطت الفنانين فيما بعد، فهمت هذ الارتباك، الأصابع التي تمسك الريشة في غير هدوء، تريد أن تداعب الورقة، وطرف الريشة يخشى أن يمتدّ ويمتدّ وينزلق فجأة، كأن واجبه أن يستعيد، وأن يسمح في الوقت ذاته للورقة أن تستعيد طقوس العبادة، وعندما يهبط الطرف ويلمسها سترتعش الورقة، وتبدأ الحركة المزدوجة، أسمع تزييق الباب، فأتخشّب، الورقة ترتجف، والريشة أيضاً، يخرج أحدهم:

ـ السلام عليكم.

ـ عليكم السلام.

ابن عمّي يعاود الرسم ويثبت، أحسست حتى أنه لم يرفع رأسه، الرجل اقترب كأنه يحاول فهم المشهد

ـ من هذا الغلام؟

ـ أين عمّي.

ـ ما اسمه؟

ـ الحسن.

ـ لماذا ينظر إلى الأرض، هل يخاف منّي؟

ـ لا، إنه خجول.

ـ هه، وماذا تفعلان.

ـ أعلّمه الرسم.

ـ طيّب.

الأكيد أنني في أوقات قادمة سأتذكّر، وأتخيّل أن ابن عمّي كان يرسم كأنه يروّض أختي ويضاجعها، كأنه يدخلها من كل شقوقها، في أوقات قادمة سأتذكّر وافتقد الثقة في أنه كان يحلم بأختي، أتخيّل أنه كان يحلم بكل النساء، ويجترئ ويحلم بأمّي أيضاً، يرسم على أطراف الورقة الليل أسود وكأنه وحش طيّب وديع، ثم يفرش النهار بألوانه المختلفة على بقيّة الورقة، وقبل أن تثور وحوشه يجمع لها أعمدة الظلام، ثم يرسم طيوراً وأشجاراً وبحيرة صافية، وكلّما بدأت قوّة الرسم في الظهور، كانت الورقة لا تتوقّف عن انتظار نصيبها الأكبر منْ الأسرار، والسحر، والشجر المرسوم يزداد كثافة، والطيور ترفرف وتصعد إلى الأعالي، والنمل الذي يملأ شقّاً ضيّقاً من الأرض يجعلك تسمع الأرض وهي تتأوّه: آه، آه، فإذا ازداد أكلان النمل أصبحت لغة الأرض جوفيّة وغير مفهومة، والبحيرة يتّسع مجراها، الطبيعة كلها لا تفتر عن معاودة اللذّة، وانا أسفّ النظر، والوقت انزوى قرب عقب الباب، كانت له عينان

جاحظتان وحمراوان جداً، يتلصّص ولا يتدخّل، وفوق شقّ الأرض الذي تنهشه حشود النمل، تظهر ساق أختي، تغوص، وتحفر وتتجلّى، وتصنع خطوطاً شاحبة في البداية، ثم تنجح آخر نطفة حبر في توضيحها، إنها الخطوط التي ستحيط شقّ النمل، وستبدو دائماً مثل وميض فرج عارٍ، وبينما حائط الظلام يصطدم بأقدامنا، أعلن ابن عمّي أنه يعتقد أن الظلام أسبق إلى الوجود من النور، لأنه يلد النور، فعلى الأرجح كان الظلام دائماً أنثى، والنور ذكراً، مثلما أنك طفل، لحظتها كدت أتدحرج، من أين يأتي بهذا الكلام، ولأنها المرّة الأولى، كنت أشعر بالخجل من اللوحة، أختي مستلقية على ظهرها وفخذاها مفتوحان، كستني رعشة، وكساني عرق، جذبني بقوّة وعطف إضافيّين، وجرؤ على تهديدي، وأشار إلى اللوحة:

ـ لا بدّ أن تظلّ طفلاً إلى الأبد، هه.

ثم دفعني وأوقفني، ونهض منسرق القوى، في أثناء دخولنا أسرّ لي:

ـ في المرّة القادمة سنرسم لوحة أجمل.

أحسست وكأنه يضع فوق كتفي بعض الأسرار التي يحتفظ بها، ومع ذلك لم أشعر بالعبودية، أخبرته:

ـ سأحتفظ بها.

قال: أعرف.

عندما نعود إلى غرفة الكبار، تفاجئنا أمّي: ما لكم، ما لك يا الحسن، أقول لنفسي لماذا كانت لحظات الرسم قصيرة، ولماذا تشبه الحرب، إن الرسم بالتأكيد يبحث عن السعادة ولكن هل يمكن أن يحظّر الله الرسْم، أن يزدريه، بسبب فخذي أختي، وفرجها، هل يمكن أن ينظر الله إلى الرسم باعتباره انصرافاً إلى المتعة فيأمر أن نتجنّبه، الأكيد أن الله يمنع استعمال اللّذات، ويمنع السخط والغرور والشهوة المذهلة، ويمنع الإرادة الفردية، صوت أبي يتخبّط قريباً من أذني، لا أعرف لماذا أفرّ منه، وعندما أتذكّر الساحر الذي زار المدرسة، وأذهلني، أبتسم، وأتذكّر أن فضائل ابن عمّي

خفيّة، وأنه محصّن بخيال دافق، وعقائد سرّيّة، وابتسامة ساخرة، واهتمام عميق بالذات، وأتذكّر رائحة شعره المدهون بالكريم والتي كانت عنوة تمّر فوق شعري أحياناً وفوق أذني أحياناً، وتنفذ إلى أنفي بطريقة متقطّعة، تتّصف بالسكون التامّ لبضع لحظات، ثم تعود وتنفذ من جديد، على شكل شهقة مبحوحة فقط، لوهلة تخيّلت أن الرائحة طاغية وضاغطة، وأنني عاجز عن التنفّس وأنني على وشك الاختناق، في الوهلة التالية كنت قد ألفت الرائحة، واستعذبتها، فضّلتها على رائحة الصابون نابلسي شاهين الذي تستخدمه أمّي في تصفيف شعري، عندما ابتعدت الرائحة قليلاً، واستبطأتها، أدرت رأسي عفوياً نصف دورة، لألاحقها، فلمحت وجهه مبهوراً وحالماً ومائلاً إلى الخلف، وكأنه ينقاد في إثر تأمّلات باطنيّة، التقت نظرته بنظرتي، فأعطاني الانطباع أنه لم يعرفني، وأنه استغرق في نوم عميق، لولا أن الريشة الداكنة قليلاً كانت تعمل في دأب واستثارة طال مداها، وبالإضافة إلى ذلك تذكّرت أن **الله** يدخل قلوبنا عن طريق الحواسّ، وأن الرسم يتمادى في ذلك، ويتصارع مع **الله**َ، وقد يصرعه، الآن أعرف أن للفنون كلها أخلاقيّة طائشة، أخلاقيّة جنسية، تطاردالجنس، وتحتفل بالشهوة، لأن الفنون كلها تخاف من الموت، وتحذر الرتابة، ولأن الجسد هو الأكثر تعرّضاً لرياح التعرية ومياه التحولات، أي أن الجسد أكثر العناصر قابلية للانحلال، وأنه بالتالي يبحث عن خلود مفقود، ويبحث أيضاً عن موادّ لحام طبيعية تسيل من جسد إلى جسد، ولا يجدها إلّا في حديقة الشرّ، الحديقة المحرمة، كذلك الشهوة التي هي تاجنا وعارنا، تحاول بقدرتها الفائقة، أن تنسينا كل ما عداها، تحاول الثأر من حكاية أبي الهزلّيّة التي يطلق عليها اسماً كهنوتياً، أنا أحيا، أنا أموت، أبي يؤكّد أن **الله** َيأمرنا بأن نستعذب إحساس الإنسان الذليل بالخضوع له، لأنّ هذا الإنسان سرعان ما سينتهي بالسقوط العاجل، ومدرّس الدين يؤكّد أن نسيان **الله** يقود إلى الهاوية، واللوحة التي رسمناها منذ قليل تؤكّد أن طريق الرسم هي طريق الصعود والارتقاء، وهي التي تجعل الإنسان يتحرّق إلى الحبّ، ويتمنّى

أن يدوم ويدوم، طريق الرسم وحدها تطلق سراح الإنسان المنبطح على وجهه فوق التراب، أعتذر، ليست وحدها. وكما يحدث غالباً نادتني أمّي: يا الحسن، وأعطتني إشارة تطلب أن أتبعهما، أذكر أنّ ابن عمّي أوصلنا إلى باب البيت، وودّعنا كانت راحة يده رطبة، ولم يكن صوته مرحاً كأنه ما زال يبحث عن الصفاء الضائع، وأثناء وقوفه وحيداً أمام الباب، التفتُّ إليه، كان منكّس الرأس، يستخدم مشط قدمه اليسرى في رسم أشكال على الأرض، التفتُّ أكثر، إنه يبتعد عن البيت، ويخوض بتكاسل في الظلام، عندما التفتُّ مرّة أخرى، كان قد أصبح شبحاً، يده مثبتة في خصره، يفصله عنّا الكبرياء والهواء، ويقف فوق أعلى حدود العزلة، الآن أتخيّله شخصاً طائشاً ألف أن يحتفظ في جيبه بأنياب وأظافر حيوان مفترس، وأن يحتفظ في أعماق عينيه بقدرة هائلة على التواطؤ، وقدرة أخرى على القسوة العاشقة، في البيت استطاعت أختي أن تشفط الماء من آباري، وتشرب قدر طاقتها، سألتني:

ـ ماذا قال لك؟

ـ وأنتِ ما لك (ثم أخرجت لها لساني).

ـ يجب أن أرعاك.

ـ لست صغيراً.

ضحكت: بالتأكيد أنت صغير، هه، ماذا قال لك؟

ـ رسم لي لوحة.

ـ هل يمكن أن أراها.

وبعد أن كانت ضحكتها مستمتعة وممتعة، أخذت الضحكة وهي تنظر إلى اللوحة تضيق وتفتر، وقالت بصوت عصبي:

ـ إنه مجنون.

بعد أن هدأت، سألتني.

ـ هل ستذهب ثانية.

- نعم.

- أرى أنه استهواك برسومه.

- سيذهب معي إلى شيخ الصيّادين.

خلال الأسبوعين اللذين غابهما ابن عمّي لم نسمع عنه شيئاً، كانت أختي تتحرّك مثقلة بحنينها، وكنت عندما أراها أحسّ فطرياً أن غيابه يقلقها، فأقلق من أجلها، وأن حضوره سيجعلها متهوّرة كعادتها فأنكمش كأنني صدفة، وأخفي احتمال تهوّري، لم أستطع أن أعترف لنفسي بأنني أيضاً أشعر بالاستياء، في الأسبوع الثالث اقتربت أختي وهمست:

- هل نسيت الرسم؟

- لا.

بدت حائرة وأكثر ضعفاً وغير قادرة على المواربة.

- إذاً، اذهب إليه.

لا أعرف لماذا أحببتها!

- لا، لن أذهب.

صمتت طويلاً، ثم انسحبت كأنها شجرة صفصاف جميلة، بعد يومين زارنا عمّي وزوجته ومعهما ابن عمّي، الغريب أن أختي اختفت تماماً، ظللت أحدّق صامتاً في وجه ابن عمّي، وظلّ يتجاهل تحديقي، كان يعرف ما أريده، حكى لهم عن غيابه الأخير في الجيش، ثم صمت واختفى وراء وجهه، فجأة سألني:

- هل تحبّ أن نرسم الآن؟

- لا.

عند ذهابه، وبعد أن سلّم عليهم، سلّم عليّ، وفركت يده أصابعي، ضحك وقال:

- سأنتظرك.

كانت اللوحة الثانية تنغمر كلها في أجواء الهروب والمطاردة، فهي لم تخجل من

رسم كل شيء مستور، ولم ترغب في رسم كل شيء معلن، امتلأت اللوحة بالكهوف والدهاليز والممرّات، كان قلمه يتجوّل بينها، ويدخلها، ويبعث فيها الحياة، ممّا جعل شكلي وجلستي يبدوان غريبين، فما معنى أن يقبل الطفل بعقله الصغير كل هذا الازدحام والعيب والفوضى، الأفضل أن يتهرّب بضع لحظات بعيداً عن التفكير والنظر، وأن يغمض عينيه، الغريب أنه استفاد من شعوره بأنه السيّد، وحسم الموقف بأن ضاعف وحشيّته، مدهوشاً ومفزوعاً فتحت عينيّ إلى آخرهما، كان قد قرّر أن يسدّ كل ثغرة، وأنا أنتظر عري أختي متى سيظهر، شعرت بمحبّة اللوحة، وبالحزن لأنها لا بدّ أن تنتهي، كانت عامرة بالأجساد المتداخلة المنتشية، والأعضاء المدلّاة أو المشرعة والأفخاذ الصلبة، والالتصاق الجارف، نساء في نساء، نساء في رجال، رجال في نساء، وأختي تشرف على الجميع، وعندما أتمّها، اعتدلت، وندمتُ، قلت له:

ـ رسمك غامض.

احتدم، وبدأ هذيانه وقال:

اذهب.

وبعد قليل، سبقني ودخل البيت.

أختي لم تسألني عن اللوحة، ولم تفكّر أبداً في رؤيتها، ظهرت وكأن روحها التأمت مع روح شخص آخر لا أعرفه، وأنها بدأت في إقامة عالمها الخاصّ، أدهشني فورانها الحرّ، الآن أعرف أنها خليط من صفات عديدة جدّاً آخرها وأوّلها حبّ الجنس والحماسة والمكر واللامبالاة.

عندما رأتني أحتفظ باللوحتين في الدولاب، ثم أتمدّد على السرير، باغتتني:

ـ هل أصبح صديقك؟

ولما لم أردّ، هزّت كتفيها، وجلست أولاً على الحافّة جهة رأسي، وبدأت تدعك وتقرص جلدي وذقني وخدّي وأذني، ثم تمدّدت بجانبي والتصقت بي، ولفّت

ذراعها حولي، فانضغط جسدها في جسدي حاولت أن أزحزحها وأزيحها، ولّما يئست سقطت يدي على رجرجة ردفيها، ضحكت، أذكر فقط أنني لمست بطنها العارية بجسمي، وعندما شردت عنها أخذت تخمشني وتخدشني وتسبّني بلطف، ثم أجبرتني أن أرى جسدها ببطء، الأكيد أنها كانت بغير ملابس داخلية، مرّرت هي راحة يدي فوق كل موضع أراه، وبعد وركيها مرّرت يدي أمام فتحة يحيطها شعر، الأصحُّ يحيطها زغب، فوجئت بالفارق الضخم بين ما يوجد عندها وما يوجد عندي، اللوحات التي في الدولاب لم تدلّني على الفارق، الفتحة ساخنة ومبلولة وضيقة ولحمها متماسك ولدن، طلبت منّي أن أحشر أصابعي فيها، فلمّا حشرتها، طلبت أن أسحبها، وقبل أن أتمّ السحب أمرتني: احشرها ثم برجاء: افعل هذا من أجلي، كانت تحثّني وأنا خائف وهي بفم مليء باللعاب تشهق وتنهج: بسرعة، بسرعة، بسرعة، ظللت أعمل بسرعة، حركاتي آليّة وباردة، وأؤجّل رغبتي في الفرار، بعد فترة ليست قصيرة، توقّفت:

ـ لقد تعبت.

أريد أن أغسل يدي.

نهضت فجأة وشتمتني: أنت جبان وطفل.

في اليوم التالي صالحتني، قبّلتني في فمي، وبعد تردّد، اغسل أسنانك، لا تخجل، في المرّة القادمة ستكون رجلاً...

أتخيّل دائماً أنّ ذلك لم يحدث وأن المرّة القادمة لم تحدث أيضاً، فبعد وفاة زوجها، كنت محموماً، وكانت تمصّ حرارتي، وكلّما أفقت وجدتها تدعكني وتقبّلني، في إحدى إفاقاتي شممت الرائحة السحريّة المشبوهة.

لا بد أن النسيج المصنوعة منه تلك الأيّام كان شفّافاً جدّاً، وأن جسمي كان مرئياً تحت ثيابي، وأن أجسام الذين عرفتهم كانت مرئيّة، قد أفشل في وصف ملامح الوجوه، إنها أوّل ما أنساه، وكأن الأجزاء الخفيّة هي الأجزاء المناسبة لنشاطي، ولا

بدّ أن الكرة الأرضية في تلك الأيّام أيضاً كانت صغيرة جدّاً، فهي تضمّ بيتنا والبيوت المجاورة وتضمّ أيضاً بيت عمّي والساحة والكرسيّ والظلام.

لا بدّ أن كل ما حكيته حدث، لا بدّ أنه لم يحدث، فأنا الحالم الذي لا يمايز بين حلمه وواقعه، أنا عاشق تامار بنت داود التي أحبّها أخوها غير الشقيق امنون، وبلغ به الحبّ حدّ المرض، وكان منالها صعباً لأنها كانت عذراء، حتى احتال عليها واغتصبها، ثم أبغضها بغضاً أشدّ من الحبّ الذي أحبّها إيّاه، وقال لها: قومي انصرفي، فقالت له: هذا شّر أعظم ممّا فعلته بي، أنا عاشق فرانسي، التي ظلّت تقول، ليس هناك تعقيدات، لا أرقام هواتف، لا رسائل حبّ، لا مشاجرات، ما رأيك، اسمع، هل تظنّ أن هذا سيّئ جداً، في إحدى المرّات حاولت إغواء أخي، لم أعد أذكر تماماً كيف حدث هذا، ولكن على أية حال كنّا وحدنا في البيت، وكنت مشبوبة في ذلك اليوم، ودخل إلى غرفة نومي ليطلب شيئاً ما، وكنت مستلقية هناك، رافعة ثوبي، أفكّر بالعمليّة وأشتاق إليها بشدّة، وحين دخل لم يعد يهمّني أنه أخي، فقط فكّرت به كرجل، هكذا انطرحت هناك مرفوعة الثوب، وقلت له: إني لست على ما يُرام، وأن بطني تؤلّمني، وكاد يُهرول خارجاً ليحضر لي شيئاً، لكني منعته، وقلت إنه يكفي أن يفرك الجلد العاري، وسأتحسّن، فككت صداري وجعلته يفرك جلدي العاري، حاول أن يواري عينيه إلى الجدار، ذاك الأبله الكبير، وأخذ يفركني كأني قطعة خشب، فقلت «ليس هنا يا أبله، إلى أسفل... ممّ أنت خائف؟» وتظاهرت أني متألمة، وأخيراً لمسني صدفة، فصرخت: «نعم، هنا، أوه، افرك، إنه شيء ممتع جداً؟ أتعلم أن الأحمق ظلّ يدلّكني حوالى خمس دقائق دون أن يعلمْ أنها كانت لعبة، واشتدّ غضبي حتى قلت له، أن يذهب إلى الجحيم، ويتركني وحدي، انتهى كلام فرانسي، ذات مرّة، جرؤت، وحكيت لأختي كل حكاياتي عنها، فصمتت فترة، ولم تغضب منّي، لكنها قالت لي:

ـ هل كنت تحبّني كل هذا الحبّ، وتتخيّل عنّي كل هذه الأشياء ولا تكلّمني عنها؟

وربتت على ظهري بحنان وعطف، وذكّرتني بأننا كنّا دائماً مشحونين بعدم محبّة عمّي وعائلته.

أذكر كنّا سنزورهم رابع أيّام عيد الأضحى، ارتديت ملابسي الجديدة، فأصبحت مثل الحمامة الصغيرة، أمّي اكتشفت لهفتي وقلقي فاستعجلت أبي الذي تململ:

ـ يا شيخه، ما زال الوقت مبكّراً.

وقبل أن تبرد عبارته، طاوعها، عند باب البيت الكبير كان الكرسيّ الشاغر، ثمّ كانت اللوحتان الثالثة والرابعة معاً، بعدهما، أصبحت دائم الحزن بشكل غير مألوف، كلّما أنظر إلى اللوحات، أحترق بخجلي، بدا لي أن الأمر قد تقرّر في السماء، وأنه يجب أن أجلس تحت نخلة أبي، وأشكو إليه، وأطلعه على الجمال النجس الذي لطّخ الورق وأحببته، كان قلبي النهم قد ارتعب من الفضول العميق، أمّا الترتيبات التي اتّفقنا عليها فلم تكن كافية لكي أطمئنّ، في جانب منها كان ابن عمّي يفكر أن يرسم بورتريهات لي ولأختي ولآخرين، وفي جانب آخر كان يقول إن الرسم يحتاج منّا أن نكون أكثر جسارة وأحياناً يحوّر العبارة، ويقول إن الحياة تحتاج أن نكون أكثر جسارة، ثم يتمتم والحبّ أيضاً، وبعدها يتّهمني بالخوف والخجل، وأنني يجب أن أغطس لساني في قلبي قبل أن أتكلّم، وأنني يجب أن أتكلّم، فالرغبات الجيّدة تصلح أن نطلبها باستماتة خاصّة إذا كنّا أطفالاً، لأن قلوب الأطفال لا يعاقبها الله حتى ولو أخطأت، أنت تنظر إلى هذه اللوحة وكأنني الساحر الشرّير، إنني لم أعد أستطيع الاحتمال، أبوك وأمّك مخلصان ويتصوّران أن العالم مملكة أخلاق، ولذلك يجتهدان في زراعة الأسلاك الشائكة حولكم، يربّونكم على أنكم أحرار، في الحقيقة أنتم سجناء، كان قلبي يقول لي: هذه خطبته الأخيرة معي، لم أفهم أغلبها، تمنّيت أن يهدأ، ونرسم لوحة أخرى، كنت قد أتيت معي بورقتين، فهم وقال لي:

ـ ماذا يجب أن نفعل؟

ـ لوحة ثانية.

ـ لوحة ثانية.

تكفي الأولى، هل أحببتها؟

ـ نعم.

ـ هل أنت فخور بها؟

ـ نعم.

ـ هل ما زلت ترغب في الثانية؟

ـ أرغب.

نظر إليّ دون ابتسام، كأنه لا يبالي بما يفعل، وقال بحزن طارئ.

ـ قد تخاف من الرسم.

كان تحذيره خشناً، فلم أقوّ على الردّ، وبعزم شديد وضعت الورقة البيضاء فوق حجري، كانت الورقة تتذبذب، انتظرها كي تستقرّ، بدا لي أن جسمه يتذبذب.

انسابت لوحته الأخيرة هادئة متأنّية، كان يحسّ أنني طلبتها، وأنني أحبّ رسومه، امتلأ بالثقة ولم ينزعج عندما غمرنا الظلام الناعم، أسماه الملاك الحارس، امتنع أكثر من مرّة عن إنهاء اللوحة، إنه يتشبّث بالرغبة في الاستمرار، ويولي اهتماماً كبيراً لما يعمل، يخط خطوطاً مختلفة، وإذا لم تقنعه يخطّ خطوطاً أخرى، اندفق الرسم بلا غاية سوى اللعب، كانت اللوحة الوحيدة التي زوّدته بالراحة والفرح، قبلها كان يشعر دائماً بالإثم، أظنّ الآن أنه كان يتعذّب بسبب التضارب بين أفكار الناس وأفكاره، وبين أفعال الناس وأفعاله، اللوحة الأخيرة جعلته ينتصر، ودون أن يقصد كلانا، أحاطني بعينيه، وأحطته كأننا نفترق.

في الأيّام التالية أحسست بيد **الله** فوق رأسي، وأطلعت أبي على اللوحات، فأمرني أن أبتعد عنه بلياقة وأدب، ووعدني أنه سيحاول إرشاده إلى الصواب، بعدها تحوّل ابن عمّي من كائن قريب يصنع الحكايات، إلى كائن مجهول تصنعه الحكايات، والغريب أنني فارقت الرسم، حتى الفروض المدرسية كانت أختي تهمس في أذني: أحبّ أن

أفعل ذلك، بينما ظل أبي يجدّد صورة ابن عمّي كلما شحبت، استعدّوا يا أولاد، إنه سيتزوّج، وسوف نحضر جميعاً العرس، في العرس رأيت امرأته، كانت أطول منه، أنفها كبير، ووجهها سمح، حدّقت إليها، وشجّعتني، فأحببتها، قال أبي: لقد عجّلوا بالزواج اتقاءً للفضيحة إن الفتاة حامل، ثم انقطعت الحكايات لولا أن ابن عمّي جاءنا بعد ذلك بزمن طويل، كانت أختي قد تزوّجت وأنجبت ثلاث بنات وولداً، وكنت انتهيت من الجامعة، جاءنا ومعه رجل، وجهه مليء بالتجاعيد، قدّمه إلينا: الشيخ محمّد المهدي، وحكى لنا في زيارة تالية، أن الرجل انتقل إلى الإسلام حديثاً، بعد أن توفّر على علوم الغيب، واستكناه المجهول، كرهت المهدي لأنني أيّامها كنت هائماً بالمسيح وجبران، علمنا فيما بعد أن ابن عمّي لازم الشيخ المهدي ملازمة المريد، وأنه تحصّل على علوم الغيب منه، ثم استقلّ بعد وفاة الرجل، وأخذ يجوب الريف، وأصبحت نساء الريف وبعض رجاله يتطلّعون إليه ويتبرّكون به، ارتدى الجلباب، وحمل المسبحة، وأطلق اللحية، ولما تزوّج أخي، وفشلت ليلته الأولى، وثلاث ليال تالية، أتوا بابن عمّي، طلب إناءً نحاسياً فارغاً وكبيراً، وكتب عليه كلمات حروف مبهمة، وأمر أن يملأوا الإناء بالماء، وينتظروا حتى تزول الحروف، وأن يستحمّ أخي بماء الكتابة، فإذا انتهى وباشر زوجته سيدخلها ويفتقها ويسرّها بإذن اللّٰه.

لما أصبح ابن عمّي شيخاً بجلباب ومسبحة ولحية، سعى إلينا، نحن الشباب غير المتزوّجين من أبناء عمومته، كان يزورنا ويدعونا لزيارته، وكنّا نستجيب ونذهب، ولقد أوقد كعادته ناراً بيننا، ولكنها نار أمتعتنا بعض الوقت، وفرّقت بيننا بقية الوقت، لابن عمّي ذرّيّة من بنت اسمها ثريّا، وولد يصغرها اسمه صالح، البنت عيناها ملوّنتان، وشعرها ملوّن، وجميلة وجريئة وملتزمة، كنا نذهب أحياناً فرادى، وأحياناً نلتقي جميعاً عنده، نلتفت إليها خلسة، لم نكن نجرؤ على النظر المباشر، حلمت بها دون أن أراها شريكة، أمّي تستسلم للغضب أو الحزن إذا بلغها أنني أزورهم، في تلك الفترة تعرّفت على مها، وشغلتني، فتعطّلت عن الذهاب إليهم، ولما

صادفني ابن عمّي، وعرف أمري، وكنت لا أكتمه، لأنني أرغب في إتمامه، شرع في استخدام علومه السرّيّة، علوم الأفلاك والزايرجه، وسألني عن اسمها، قلت: مها، ما اسم أمّها، قلت: درّيّة، هو يعرف اسمينا أنا وأمّي، بعد وقت طويل أطلعني على ما تنبئه به علومه، قال لي: انصرف عن أمرك ولا تنشغل به، أنتما عنصران متنافران، كان يقول بالعناصر الأربعة، المتنافر والمتجاذب، سمعته، ثم انقطعت عنه، أحد أبناء عمّي الذين يتردّدون عليه أعلن رسمياً رغبته في ثريّا، آخر حكاياته أنه ابتنى مسجداً يؤمّ الناس فيه، وأن عمامته ارتفعت أكثر، ولحيته انسدلت أكثر، وأن زوجته فارقته بالموت، وابنه صالح لحقها، وأنه انكسر وغالب انكساره بامرأة أخرى، ولكنني عندما رأيته في جنازة أبي، لم أذكره قطّ، لم أعرف أنه ينام في الأعماق، وبغير إعداد سابق طفا فوق نفسي، كأنه يعوم،أو كأنه يحلّق، ففرحت به، ونظمت طابور العرض الذي جاءت مقدّمته في أوّل الفصل، تركت أبي بجلبابه الأبيض يمشي أمامي، وسمحت له ـ أعني ابن عمّي ـ أن يمشي خلف كل الناس، وفوق ظهره خزانة الذكريات، ولما تعثّر وشاء أن يتراجع، أخذت حمولته التي أصبحت ملكي وحدي، أثقل ما فيها كان حيرتي بين شمس أبي الساطعة، والظلمات التي رسمها هو، أثقل ما فيها كان سؤالي: هل هو فاسد فعلاً، أم أنه بأمطاره الجديدة، وأنواره الجديدة، وحنانه المشوب بسوء الظن، حاول أن يغريهم برؤية أحوالهم، ولما انهزم استقال وذهب إلى الله، في ختام العرض أعددت كلمة، فكّرت أن أطلب تليفونه، وأقرأها عليه.

.

الفصل الخامس:

فصل سين سينما شين شعر واو ولد باء بنت

ماذا يحدث إذا صعدت إلى سقف بيتكم، ووجدته مفروشاً بالسجاجيد الفارسيّة والعجميّة، ومضاءً بنجوم بلا أسلاك، والهواء البارد ينفذ إليه، ومن الأعماق السحيقة تخرج أرواح، أصحابها ما زالوا يراودونك، ما زالوا يبدأون بتلاوة نشيد الأناشيد والمزامير وسورة مريم، ماذا يحدث يوم تتخلّى عنك هذه

الأرواح، فتصعد إلى سقف بيتكم، وتجده عارياً إلا من الموت، لو كنت أحد المتمسّكين بأصول الديكور، لجرّبت ألف تفصيل وتفصيل، يمكنك بها أن تستعيدهم وتستوعبهم جميعاً، ودفعة واحدة، عموماً مهما فعلت، وأيّاً كانت الحسنات والأخطاء، فإنه سوف يتعذّر على هذه الأرواح البقاء، إنهم دائماً في حاجة إلى سماء، دائماً في حاجة إلى أن ينطلقوا قاصدين بيوتاً أخرى، قاصدين خلاء أو عماء آخر، دائماً في حاجة إلى إشارات، في حاجة إلى أن نلوّح لهم بأيدينا: باي باي، ونهبط إلى حجراتنا، بيتنا كان على حدود الحقول، على حدود العمران،وعلى حدود القضاء والقدر، بيتنا كان يحاذي الأفق، ويحاذي التيه، ويحاذي ظلّه، في جهة ممتدّة من بيتنا إلى الأطراف البعيدة، كانت شمس المطريّة تطلع قبل أن تطلع شمسنا، وكان رجالها ونساؤها لا ينظرون ناحيتنا، كانوا ينتظروننا، في المطريّة سوق يُقام كل خميس، أرض السوق خلاء واسع محاط بسور بدائي يرمّمه الحرّاس أسبوعياً، ودائماً تتخلّله فتحة أو أكثر، صنعتها يد عاطلة، لتسمح بتسلّل الراغبين في الدخول دون رسوم، أمّي وأبي شغوفان بسوق الخميس، يُعدّان ويستعدّان له كل فترة، ويحلمان بطيوره وحيواناته وفاكهته، أمّي وأبي لم ينسيا طيور قراهما وحيواناتها وفاكهتها، يوم السوق كنت ألبس ملابسي بشعور من سيخرج للنزهة، أتأهّب لأبحث عن غير ما يبحثان عنه، أمّي وأبي يرغبان في حمام وأرانب وبطّ وأوزّ، كلها حيّة تسعى، كلها صغيرة، سطح بيتنا يتّسع لها، يرغبان في خروفة أو خروف، في أنثى ماعز، أو جدي مراهق، ليطلقوه إذا كان ذكراً فوق السطح، وليودعاها إذا كانت أنثى لدى راعية بدويّة وضمن قطيعها، على أمل الخصوبة والتكاثر، في السوق، كنت بملّيم واحد أجرع كأس عرقسوس، أو كأس خرّوب، بملّيمين اثنين أجرع بعد الكأس الأولى كأساً ثانية ربّما من التمر هندي أو السوبيا، كانت ملابس البائع ودورقه الكبير وحزامه الذي يربط الدورق إلى جسمه وطاساته وشخاليله وخلاخيله ونداءاته، وطريقته في الصبّ، كانت كلها

تبهجني، في السوق كنت أتلفّت كالمشتاق أو كالمذعور إذا طال تلفّتي، أبحث عن بائع الصور، وكأنني أتيت من أجله، وكأنني فقط الذي ينتظره، صور بدائية ساذجة، رسمها فنّان شعبي، ريشته تذكّر بأنها منزوعة من جناح ديك رومي، أو من جناح أنثاه، والصور كلها عائمة في غيب شفّاف يلفّها، صور الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين وجعفر الطيّار، كنت أكتفي برؤية الصور مرفوعة في يد البائع، أنظر ولا أتزحزح، ولا أفكّر كما لا يفكر أبله واحد في شرائها، لأن امتلاك صورة واحدة كفيل بأن ينسف الحلم الذي اعتادوا عبوره، وعندما أغادر السوق أغادره مثل عود قصب مفقودة زعزوعته، الآن أتخيّل هنري روسو يلاحق خطوات بائع الصور، ولا يلحقه، في أيّام الجامعة، كنت أصعد يومياً إلى سطح بيتنا، مع كرسيّ وكتاب وفضول عارم وشهوات بكر وبعض زهو وغرور، سببه أن أرى الجارات، وأن تراني الجارات، ذات يوم صعدت ومعي كل شيء من الكرسي إلى الغرور، ومعي أيضاً كتاب القصائد الأولى لأدونيس ودفتر أدوّن فيه شغفي بالحياة والأساطير والألوان، ومعي انتظاري الدائم للبريد الذي يأتيني، من بلدة موط بالوادي الجديد، ومن ضاحية الروضة بالقاهرة، وكان ساعي البريد، لا زلت أذكر التعابير على وجهه، يضحك عندما يراني أحمل بعض الكتب السميكة تحت إبطي، ويسرّني اندهاشه، لمّا ذات يوم ناداني الساعي وهبطت، وتلكّأت أقرأ الرسالة في أثناء صعودي، وعلى الدرجة الأخيرة للسلّم تباطأت، كانت الرسالة من مها، ويبدو أني اصبحت في ذلك الوقت صافي السريرة، ومنسجماً مع كل شيء، مع أني لم أتوقّف عن الخوف من أحلام مها، ومن إلحاحها على الجري خلف سعادة مستورة، في تلك الأثناء كان الخروف يحكم فمه على القصائد الأولى، ويخبطها بالأرض، بعد رحلة مع الشعر العمودي ومع المجنون وبشار بن برد وعمر بن أبي ربيعة والمتنبّي والجواهري وشوقي وإسماعيل باشا صبري وسعيد عقل وبدوي الجبل والأخطل الصغير وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي ومحمود حسن إسماعيل

وصالح جودت وأحمد فتحي وغيرهم، بعد رحلة امتدّت هكذا من الشعر العمودي جداً إلى الشعر العمودي فقط، ومن شعر التفعيلة جداً إلى شعر التفعيلة فقط، بعدها تعرّفت على القصائد الأولى، وأحاطتني الأساطير، احترفت النظر إلى الفتى الجميل الذي تعاقبه الآلهة إذا التفت خلفه، بأن تحجزه في دنياها السّريّة بعض شهور السّنة، وأن تتركه لدنيانا بعض الشهور الأخرى، فيزهر كل نبات من نباتات الألوان، وتخضرّ أوراق الشجر، وتظلّ الطبيعة في احتفال متّصل حتى يرتدّ الفتى المذنب إلى حبسه وخفائه، احترفت الاشتراك مع ذلك الإله الصغير وأنا أراه ينتحب ولا يقدر على الاقتراب من أبيه، الذي هكذا يحترق، في بيدر أو بين أكداس كتب، أو على مقربة من أعشاب لم تكن ذابلة، كانت قصائد أولى فاتحتي على عالم أوّل دخلته فاستقبلني آخرون ذوو جمال، رحّبوا بي، وأجلسوني على كرسيّ أعدّوه لي من قبل، وبعد أن جلست اكتشفت أنه الكرسيّ ذاته الذي كنت أحمله إلى سقف بيتنا، أذكر ذات يوم من تلك الأيّام الهاربة، أنني علّقت على جدران غرفتي خمس صور لأدونيس ونجاة الصغيرة وميرفت أمين ودوستويفسكي ودرّيّة شرف الدين، هناك صور أخرى دسستها في كتبي، كنت أرسمها أو أقصّها من الصحف والمجلّات، أو أشتريها، وما زالت تصادفني، مرّة خرجت لي صورة جاكلين، كانت مغنّية لبنانيّة ذات صدر وذات وعود وذات لعنة وكل ذلك خلف أسوار من العرق، مرّة خرجت لي صورة عائشة بنت طلحة عارية تستحمّ، عند زواجي، فكّرت قبل أن أترك غرفتي نهائياً، أن استوثق من حقوقها عليّ، ومن عدم فنائها، أن أحفظها، أن أصوّرها عدّة صور فوتوغراف، من زوايا مختلفة، زاوية المكتبة، زاوية السرير، زاوية الشرفة، وزاوية الحائط أو الحوائط الأربعة، منذ أيام قليلة، كنت أرفع عن جسمي بعض أنقاضي، عثرت مصادفة على هذه الصور، مضت سنوات الربع قرن على زواجي، مضت سنوات الربع قرن على صورة جاكلين، قلت لنفسي باندهاش لم أستطع إخفاءه: لا الزمن ولا الفراغ ولا حتى معامل الموت تهمّ، مع هؤلاء بالذات

كنت أحصل على أكثر من البهجة والقلق، وفكّرت في سماء زرقاء وشارع مهجور وبعض طيور ضائعة، فكّرت في نسر مسجون وعصفور بغير شجرة، فكّرت في أرض انشقّت عن الأرض وهربت، فكّرت في العصا التي توكّأ عليها موسى، وسرقتها، وتمنّيت له أن يسقط في حفرة، ولمّا علم أبي بأمنياتي، كافأني بأن حرّضني على كراهية يوسف ويعقوب، وحذّرني من داود وسليمان، فكرت في خطوات هي خطواتي، تتلكّأ كأنها تنتظر أحداً سيأتي، تمنّيته أن يكون أحد أصحاب الصور الخمسة، وفاضلت بينهم في أنانية، وفشلت وخرجت من الباب الذي دخلت منه، لم أقل للرجلين أو لأحدهما: بإذنك يا سيدي، قلت للنسوة الثلاث: بإذنكنّ، كلهم أشعلوا عيدان الكبريت وقرّبوها من وجوههم حتى أراهم في هيئة مخادعة، يكفي التنفّس بعمق، فكّرت في كيفيّة النوم بلا طعام، واستعادة البهجة، قلت: فلأبدأ منذ بدأت، وبدوت في شكّ تامّ من معرفتي، كأنني سأندفع إلى قاع الخندق، الروائح المنبعثة من هناك مثل روائح الزيتون والجبن الاستانبولي والجبن الرومي، قلت: فلتكن سيرة ناقصة عن كل الأشياء، لتكن سيرة خيالية، فالخيال هو ما حدث وما لم يحدث، والواقع هو ما حدث فقط، وسوف أبدأ تآليف الخيال بتأليف مدرستي الأولى، الشيء الوحيد الذي أنا متأكّد منه، الآن، وقد أفسحت اسماً لأحلامي، هو أنني كنت ألبس بنطلوناً قصيراً في الصيف، وطويلاً في الشتاء، وقميصاً واحداً، وإذا غسلت أمّي أحدها انتظرناه حتى يجفّ، وأحمل حقيبة من القماش البافتا البيضاء، أو الدمور البيج، أضع فيها كتبي وأدواتي وساندوتشاتي، والأخيرة يستولي عليها الأولاد الأشدّاء دون أن أقاومهم، فأعود كل يوم جائعاً، وأخجل من ضعفي وأخفيه ولا أحكي عنه لأحد، أحياناً كانوا يوزّعون علينا فطيرة وأربع بسكوتات، الكبار يقولون إنه: دقيق المعونة، أنتعل حذاء رخيصاً نعله من الكاوتش وبقيّته من القماش السميك الأبيض، وأحبّ الأستاذ عبد الوهّاب مدرّس الرسم، وأحبّ أكثر زوجته الأستاذة كريمة التي كانت تحكي لنا التاريخ، كأنها عمّتي، في الطريق إلى

المدرسة، كانت الحارات تسلمني إلى الحارات،والتراب والغبار إلى التراب والغبار، كل ما أعرفه أسمع عنه ولا أراه، معارفي بحروف كبيرة لا معنى لها، لا آبار ولا وديان ضيّقة، الشتاء هو الوحل، والصيف هو الحشرات، وعبثاً ستبحث بعينيك عن المرأة التي تستطيع أن تحمل جرّتها المائلة على رأسها وتمشي في رشاقة، الحارات عيون، عيون النساء وعيون الرجال، عيون المارّة العابرين وعيون المطلّين من الشبابيك، والعيون مملوءة بالجوع والشبق الحيواني والشهوات، والنار التي فجأة تندلع من الأحداق، وفجأة تنطفئ، أمام المدرسة باعة بعيون تشبه عيوننا، عينا عمّي كانتا مختلفتين، كانتا حقلَيْ عيون، ذواتي ألوان، لو زرنا بيت عمّي كان يوقفني أمامه ويسألني: ما اسمك؟ أجيبه، يسألني: هل تعرفني؟ فأردّ: نعم أنت عمّي، هل تعرف اسمي؟ أسكت قليلاً، وأتأمّل وجهه، وأتأمّل صورته المرسومة بالقلم الأسود والمعلّقة في الصالون، وأقول له: سعد زغلول، فيضحكون جميعاً، ضحكة أبي هي الأعلى، أمّي تضحك في عبّها، تشذّ زوجة عمّي وتقول لي: يا خيبتك، كان عمّي يشبه صورة سعد زغلول التي رأيتها في الكتاب، يبدو لي أنني أبتعد عن شيء ما، أنني أتلافى هذا الشيء ولا أمتلك سبباً لهذا، لم أعرف في طفولتي أماكن جميلة سوى الحقول، لذا لا أعرف أن أكتب عمّا لم يكن، عن حارات حسنة التهوية، حسنة الإضاءة، عن بيوت وأبراج وغرف مترفة مريحة، أو عن بيانو غير موجود، وقفص ببغاوات، وأقفاص أخرى لطيور نادرة، ومكتبة مزيّنة بلوحات رينوار ومودلياني وسلفادور دالي ومحمود سعيد، وتتصدّرها كتب ماركس وفرويد وسارتر وكامي وسيمون وتروتسكي وإبراهيم المازني ويحيى حقّي، لا توجد وصيفات، ولا خادمات، ولا فواكه في غير أوانها، ولا أنواع من الحنين والحنان، ولا الألفة، هنا لا يوجد إلا النوع الخشن الخام فقط، نسخة واحدة من القرآن الكريم، وطاولات التصقت بسطوحها روائح الأسماك واللحوم والألبان والبرتقال والعنب والجوّافة، وصور منتزعة من مجلّات لتغطي أجزاءً من الحائط سقط عنها بياضها،

كأن الطفولة تتجوّل في الماضي المعتم والحارات المعتمة، بما يتّفق مع إمكانيّة أن أتذكّر أمّي، أتعقّب أثار أقدامها، ولا يمكن أن أخطئ، النغمة الغالبة هي نغمة ال بوم بوم، وصبي صغير في مكان خفي يبكي، وقلبها يكاد يتحطّم من أجله، وأطلال بيت صامت يحرس بابه قدّيسان لهما وجهان ممسوحان، وسيقانهما رّفيعة جداً كأنها من حزم البرسيم، وتنام في مدخله سنوات أمّي قبل موتها، بثلاث دعوات فقط، بثلاثة ابتهالات، ستعود إليها الروح، وتنهض لتجلس إلى جواري أمام التلفزيون، تنظر إليه بعيون مفتوحة على آخرها ولكنها باهتة، تغمر جسمها الحيرة، لأنها تسمع وترى أمّ كلثوم التي ماتت منذ زمن، والتي تغنّي الآن، وتمثّل دور سلاّمة، وفي اليوم التالي تمثّل دور فاطمة، أمّي تعدّ على أصابعها وتسأل، هي من بالضبط، أمّ كلثوم، أمّ سلاّمة، أمّ فاطمة، وتشعر أن لبّادة سميكة من الصوف تكمّم عقلها، وتتدحرج على سلالم ملساء لا نراها، وتنظر إلينا كما ننظر إليها، ثم تعيد سرد ما يحدث أمامها في التلفزيون، ولا بدّ أن تعتادها، وتسمح لها أن ترشدك وتدلّك، أولاد أختي كانوا يحاولون إسكاتها، بعد أن تختفي أمّ كلثوم، تسألنا: أين ذهبت؟ ولا نردّ، تنظر إلينا واحداً واحداً، وتهزّ رأسها لأنها فهمت، أمّ كلثوم تأخّرت وعادت إلى قبرها، بعد أن تطمئنّ إلى صواب فهمها، تحدّثنا عن نبوءات شيخ بلدتها، الذي أنذر البلدة، وكان يمرّ، ويقف أمام البيوت، ويهتف بصوت عال وخائف ومشروخ: سيأتي زمان يتكلّم فيه الحديد، اقتربت الساعة، سيأتي زمان يتكلّم فيه الحديد، اقتربت الساعة، أمّي تحكي لنا عن رجل من قرية نائية مهجورة، أتمّ علومه، وسافر إلى بلاد لم نسمع عنها، ولمّا عاد أخذ يبشّر قومه بما رآه، حدّثهم عن غرف طويلة بها مقاعد لها أبواب، ومرفوعة على عجلات، وموصولة بسلاسل من الحديد، الغرف الموصولة بسلاسل تمشي على قضيبين متوازيين، وإذا وقفت فلكي يهبط ناس ويصعد آخرون، ثم تعود للسير ثانية، لكن قومه ظنّوا به الجنون، وعزلوه حتى مات، فدفنوه في حفرة خارج الزمام، بعد زمان تالٍ وصلت القطارات

القرية، فطلب أهلها الغفران من اللهَ، والصفح من الوليّ الذي نبذوه أوّلاً، ثم عادوا، وحوّلوا قبره إلى مزار، أمّي تتذكّر شيخ بلدتها ووليّها، ثم تمصمص شفتيها مصمصة الأسى، وتطالبنا أن نبحث لها عن أمّ كلثوم، آه، لو كان لي أن أرسم عطر أمّي، لو كان لي أن أرسم أزهار الخوخ برائحتها، وآه لو كان هذا الشاعر الياباني صديقاً لي، لحملنا حقائبنا وعذاباتنا وانطلقنا معاً نبحث عن السبيل إلى تصوير أزهار الخوخ برائحتها، لماذا أتذكّر الآن يد البارمان في استوريل، كان يمسك فوطة يمسح بها ما تناثر من رذاذ الخمر على منضدته، وبعد أن يعصر الفوطة يعلّقها على حامل خلفه، كنت في أقصى البار أشمّ ما امتصّته المنضدة من خمر، فيما كانت صديقتي تحاول أن تمنعني عن أكل الجبن القديم، ليتنا نبحث عن السبيل لتصوير أزهار الخوخ برائحتها، في ظنّي أن المكان الذي كانت فيه طفولتي وصباي هو ذاك، مثل الأرض إذا تقرّحت، تسخن ولا تعطي انطباعاً بالدفء، ومسكونة بعناصر مأساوية تدلّ عليها الغازات والسوائل المثيرة للفضول، من الممكن أن يكون مكاناً أليفاً للغاية ومضجراً للغاية وعارياً وواقعياً مثل كثير من الأشياء التي نحرص في لحظات تجلّينا على أن نختار منها، من الممكن أن يكون شاعرياً مثل شمس في رأس أمّي، وله قدرة فائقة على العصيان وعدم المحاكاة، هو بالضبط حفنة أشياء ألقيت بالصدفة على أرض خلاء، أرض بور، لونها أسود، وباطنها أسود، طين وطمي وعظام حيوانات ميتة، أرض أهملها الله ونسيها، فامتلأت بالفطر والحشائش وخطوات الحلزون، وكانت البيوت والحقول والأشجار والترع والرجال والنساء والأطفال والغربان والعصافير والكلاب، وكان صباح، وكان مساء، أشياء ألقيت في استعجال، ولم تشأ أن تمتدّ إليها أيّة يد، الترعة التي عرضها يزيد قليلاً على عشر خطوات يخطوها غلام كسول، تمتدّ من بدايتها البعيدة جهة الجنوب أيّ جنوب، إلى نهايتها البعيدة أبعد من حدودنا جهة الشمال أيّ شمال، وفي الطريق تمرّ بنا

كأنها سحليّة بلا ذيل، على جانبها الآخر حقول توشك ألاّ تنتهي إلا عند مدرسة النقراشي وحدود القصر، قصر القبّة، كنّا نحبّ أن نحيط بالقصر، كأنه يحمينا، وسط ضوء الشمس المبهر تبرز بوّابته الواسعة ويقف أربعة عساكر بملابس التشريفات تحت أربع قباب، في عظمة لن تنالها إلا من حلم معلق، لامع، لم يتقيّح قطّ، عسكريّان يركبان حصانين يقفان على جانبي البوّابة، كنا نذاكر دروسنا بالقرب من القصر، وفي الحدائق المحيطة به، نطوف وكتبنا في أيدينا، وجفوننا المرخاة لا تملك أن تحبس فضول عيوننا، وعيوننا تبرق، القصر أسواره الصفراء العالية مزوّدة بأبراج لجنود الحراسة، كنا نترقّب اللحظات التي يتبادل فيها الجنود النوبات والأدوار، كانت متعتنا طفوليّة، لم أعرف مثلها فيما بعد إلّا من خلال الكتب والأفلام، كم تمنّينا أن يفتحوا الأبواب تماماً ويسمحوا لنا بالدخول، إن الحرمان لا معنى له، ومهما كان الانطباع، فمن الضروري أن نرى غرفة نوم الملك، وكؤوسه التي كان يشرب فيها زغاليل الحمام المصفّاة بعد أن تحوّلت بالغليان إلى سوائل كثيفة، وأطباقه المليئة بالجمبري والإستاكوزا وبطارخ الأسماك المختلفة وبيوضها، هو ملك سابق، ونحن رعيّة دائمون، نسمع حكايات الكبار ونصدّقها، ونردّدها، ونحشو بها أفواهنا، فتصبح أفواهنا مثل ليل طويل، ونحلم أن نرى كاميليا وسامية جمال وناريمان وفريدة والملكة الأمّ نازلي والأميرات فوزيّة وفايزة وفتحيّة وفايقة، ماذا لو نشمّ رائحة فم نازلي لنستمتع بما يشاع عن سكرها وشبقها، ونسألها عن لياليها في فندق الملك داود بالقدس، وعن مصحف أحمد حسنين باشا الذي قرأه معها في مخدعها، الحلم لا يعرف المنطق، والسيرة تأليف حياة لا تكرار حياة، ذات يوم دخلت مع أحد مرمّمي الآثار، قصر الأمير محمّد على توفيق، فاشتقت إلى قصر القبّة، ذات أيّام أخرى دخلت الحدائق المرحة الملحقة بقصر المنتزه بالاسكندرية، وشعرت أن من أسسها رغب في أن يستخلص الحياة من كل لحظة عابرة، الخليج ينفسح، ويزرقّ، ويزرقّ أكثر، وفوقه شمس لا تتعب عند الغروب،

ولكنها تشحب فقط، وأنفاس الأميرات وروائح آباطهنّ تشيع في الهواء، فاشتقت إلى قصر القبّة، ولمّا سأزور عدلي رزق الله في بيته القريب من قصر الطاهرة، سأحنّ إلى قصر القبّة، مع مروري أمام بوّابة قصر القبّة أستعيد كل الأحلام، وأرى جلالة الملك يقف أمام مكتبه، ووراءه زجاجة ويسكي، وزجاجة نبيذ، وسطل ثلج فيه ملقاط ذهبي، وزجاجة شيفاز، وكونياك، وزجاجة جن، وعرق، وسطل كوكا كولا، وأوامر ملكيّة، وقلم الكوبيا، وقلم الحبر الشيني، وقلم الحبر الأزرق، وقلم للزينة، ورأس الملك ينسدل فوق صدره، وسوف أحتفظ في مكتبتي بكتالوجات تضمّ الصور الفوتوغرافيّة للعائلة، وسوف يؤرّقني عدم إدراكي لصورة الأمير عبد المنعم، الضائعة مثل خطّ ضائع، سوف يظلّ قصر القبّة لزمن طويل، رمزاً نلجأ إليه أنا وكل الآخرين، في ليلة ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ مات جمال عبد الناصر، الرجل العابر بجزمة من المطّاط وخوذة من الصلب وسحنة غاضبة، مثلما قال أبي، ليلة الوفاة جاءني سليمان عبد الغفّار وهرولنا معاً إلى القصر، كان الناس كلهم يهرولون، كلنا نبحث عمّن يطمئننا، نبحث عن الرجاء، البعض بكى بمرارة، البعض تنهّد بارتياح، الغالبية أصيبت بالذهول والخوف، تحرّكت جموع غفيرة نحو الساحات الكبرى، لم تستطع أيّة قوّة أن تمنعهم، كل فرد كان يقول: لم يكن بوسعي أن أتخيّله ميتاً، كل فرد كان قد وضعه في مكان الله والملك، وحول القصر يمكننا أن نبكي ونخاف، يمكننا أن نلتصق بجدرانه، منذ بداية تتلمذي الابتدائي، حتى نهاية الثانوي، ونحن، أنا وغيري، نطوف بالقصر، ونذاكر بالقرب منه، نحن عيال الله والحاكم والحارات، في مرّات كثيرة كنّا نفقد التركيز واليقظة، إذا لمحنا ظلاًّ عابراً لامرأة أو فتاة أو صبيّة، حيث تحتشد أحلامنا التي نجدها فجأة وقد طارت من قلوبنا وعلقت بها كالخطّاف، كأن حبلاً غليظاً منسوجاً من آلاف الشهوات يشدّها إلى الأمام، وعلى الرغم من قوة الحبل ومتانته، كانت أحلامنا أصلب من شهواتنا، فهذه الفترة تعلّمت كيف إذا كان ظهر الفتاة المارّة جميلاً، وإذا كانت ساقاها وعجيزتها ومشيتها

واهتزازات ردفيها، وسمانتا ساقيها ووركاها ولفتاتها كذلك، تعلّمت أن أجمع حزمة أحلامي وأمنع نفسي من التركيز على ثوبها المحبوك أو الفضفاض، ومن الاكتفاء بما رأيت، الأمر يشبه حالة سباق، لا بدّ أن أصرّ على اللحاق بها وأن أتجاوزها ثم أرتدّ راجعاً فأرى وجهها كله، وثدييها وما تحت البطن، وحتى تصبح أكثر إثارة لاهتمامي سأراها متباعدة الساقين، لن أتمادى، سأتعاون مع نفسي وأرسم بقيّة الصورة في صمت، كانت المرأة بالفطرة هي الكائن القادر على أن يبعدني عن نفسي ويلصقني بها في آن واحد، وكان الجسد يحاول أن يتظاهر أو يتفاخر، يحاول أن يبرهن لنفسه وللناس أن شدّة سذاجته تساوي شدّة مهارته، وأنه مهما حاول لا يجيد اللؤم أو النفاق أو المواربة، بذلت أوقاتاً طويلة أتدرّب فيها على أن جمال المرأة ليس في الوجه فقط، كنت أتأمّل كل عضو وأبرّره، حتى الشقّ الخفي قلت لنفسي هو ضروري لحظة الجلوس على العرش، لحظة التتويج، ما زلت أسير الوجوه، الأسير الهائم، بحثت في كتب الإيروتيكا التي ألفّها العرب عن كيف تكتشف ما لا تراه عن طريق ما تراه، كانت المرأة عندهم مغطّاة، لأن الصحراء تجبرها على الغطاء، وكان الرجل مغطّى، اللثام الذي يحجب هو اللثام الذي يكشف، فأصبحت الفراسة طلب الطالب وسرّ المطلوب، وغلبت الأهمّيّة على لمعان العين وتلعيب الحواجب وحمرة الكعوب ووفرة اللعاب وشكل الأنف وصوت الزفرة وصوت الشهيق ولون اللسان وارتجاج الجذع ودوران العرقوب، ومع ذلك ظلّ الوجه يشبه الباب الذي يدعوك أو يصدّك، هو مغناطيس الجنّة ومغناطيس الجحيم، الحسّيّون من أصحابي ألحقوني بطائفة خائبة بين طوائف العشّاق، الترعة التي كان عرضها في طفولتي يزيد قليلاً على عشر خطوات يخطوها غلام كسول، أصبحت في مراهقتي وكأن عرضها يزيد قليلاً عن ستّ خطوات يخطوها مراهق، الترعة تمتدّ من هناك إلى هناك، وفي الطريق وعلى جانبها الأوّل تتناثر بيوتنا، التي كلها واطئة ومتساندة، كلها متشابهة، كل سكّانها متشابهون، أصواتهم عالية،

والضحكات عالية، والشهيق عالٍ، والفرح عالٍ، والحزن عالٍ، والحبّ عالٍ، ذات ليلة صحوت وبحثت عن جرّة ماء أضعها قريباً مني، وجدتها فارغة، خرجت إلى الصالة، وصلني زفير، ثم وصلني زفير آخر كأنه حرب نائمة، أهملته وحاولت أن أتماسك، وصلني الزفير ثانية، وأعقبته شهقة موصولة بتمتمة كلام كأنها استغاثة أو لذّة، ثم تتالت الزفرات والشهقات، في لحظة خاطفة ميّزت آهات أمّي ولهاث أبي، فانسللت راجعاً، في الليلة التالية، وفي التوقيت ذاته، لحقني الأرق، لكنني حبست نفسي واضطربت أطرافي وأصابني حنين إلى ما لا أدري، لم يحدث أن رايت قطّ كومبيلزون أمّي أو سوتيانها أو كيلوتها، حتى وهي عجوز، ولكن حدث ولمرّة واحدة أن انطلق من ذاكرتي صوت لهاثها فانتصبت كالمجنون، وصباح ليلة الآهات لفتني على غير العادة جمال وجهها، لفتني أنه كان صافياً متشابه النغمات وخالياً تماماً من تفاهة البشر، وخالياً من الشعر والزغب، لا يمكن أن تتنبّأ لأحد هنا بمستقبل دون أن تشعر بأن أقصى نبوءة أقصر من قامة رجل أحدب، أبي كان رجلاً أحدب بعض الشيء، المكان ذاته كان أحدب كل الشيء، الأرض حدباء بالرغم من أن لونها أسود، لا بدّ أن اللهَ في طفولتي كان يظهر لي كخيال أحدب، وفي آخر البيوت، وعلى مبعدة منها بمسافة تسمح أن نرى ولا نرى، كانت القبور، كانت فزّاعة وأحجية، أيّامها كنّا لا نخاف الموت، وكان كل موت هوالموت الأوّل، وكل قبر هو القبر قبل الأخير، الترعة في أقرب نقطة إلى بيتنا تستند إلى شجيرتي توت، ربّما ثلاث، وفي نقطة أبعد قليلاً تستند إلى المسجد الجامع، الذي يكاد يسكنه مع الله، في ألفة تامة ووئام، الشيخ نبوي، ما بين عصر وعشاء أيّ يوم، كنا بعد أن نؤدّي الصلوات، ننساها، ونحتلّ متفرّقين أروقة المسجد، ومعنا الكتب والدفاتر، الشيخ نبوي ينجذب إلينا أحياناً، ينادينا فنلتفّ حوله، ينخس كتف المواجه له بإصبعه وكأنه ينخس أكتافنا جميعاً، ويتكلّم، عند كل سكتة يقول: الناس نيام وإذا ماتوا انتبهوا، مسبحته حبّاتها تتدحرج بين أصابعه، صوتها خافت مثل ارتطام

جسدين، سأسأله ذات مرّة إن كانت تنير في الظلام أم لا، لحيته أصغر من لحى القدّيسين، نحيلة في العارضين، وذات ذؤابة عند الذقن، كان يقول لنا ولا نفهم: الحرام في السمع على ضربين: منصوص ومستخرج، فالمنصوص على ضربين، منه حرام لغير علّة، ومنه حرام لعلّة، فما كان منهما لغير علّة لم يكن لأحد أن يقيس عليه، وليس فيه متعلّق، وما كان ذا علّة فالقياس أن كل شيء فيه تلك العلّة، أنه حرام مثله، حفظنا هذا الكلام لأننا سمعناه منه كثيراً، كان أحدنا يقول للآخر وهو يقلّد الشيخ نبوي: البنت الجميلة على ضربين: ممنوع ومسموح، فالممنوع أن تعرّيها والمسموح أن تعرّيها في الحلم، ذات مرّة قال لنا الشيخ نبوي: أسمعها فأحسّ بأني ما تلذّذت بشيء تلذّذي بصوتها، فو الله لساعة منها أحبّ إليّ ممّا أنا فيه، إذا أعسرت ملأ صوتها قلبي بأنس القناعة، وإذا اغتممت آنستنى بنيل الثواب، أسمعها وأبلع ريقي، وأهيّئ نفسي لعالم لا يتزحزح ولا يختلف في صورته عن دنيا الله، وكأن رضوان الخازن أعارني حمامته المفضّلة، ينخس أكتافنا واحداً واحداً ويسألنا: ماذا تحبّ أن تسمع، عندما يصلني، أقول له: غناء أمّي، وبنظرة تخزني مثل رأس دبّوس، يسألني: وهل أمّك تغنّي؟ أقول: نعم مع جدّتي، يشيح الشيخ نبوي ويتحشرج صوته: هي تغنّي له، له وحده، تقول له: أنت عمري وأمل حياتي وإنت الحبّ، عند ذاك نقترب منه أكثر، نشعر أننا أنفاسه الطّيبة، أننا الشهود عليه، وعلى براءته، ويتقرّب منّا أكثر، نشعر أنه أصوات الغيب، ثم نضحك فلا يظنّ أننا نضحك منه وعليه، ومثلنا يضحك فنرى أسنانه اللامعة البيضاء، المسجد الجامع على حافّة الترعة، والمكان الذي تشقّه الترعة، وتغطّيه السماء، وتنمو فيه الحشائش والأعشاب والدواجن والبعوض والأطفال نموّاً شيطانياً، وتحكمه النساء في السرّ، وتتوارى في العلن، ولا يخاف فيه الرجال إلا من الحظ، المكان الذي تشقّه الترعة، لا بدّ أن يستمدّ بعض زخمه وقوّته وتوازنه من وجود المسجد الجامع، من الوجود الملموس لله وملائكته ورسله والشيخ نبوي، والمسجد الجامع يستمدّ قوّته من حاجة الرجال

إليه، لذا فإنهم أقاموا في الجانب الآخر من الترعة نواة ذلك المسجد، أسواراً ومنبراً وقبّة، ثم أضافوا ميضأة، دورة مياه وكيزان للاستنجاء وصنابير وضوء، ولم يتوقّفوا قطّ عن توسعته، عن تجديده ما دامت أرواحهم الحائرة الخائرة لا تهدأ ولا تقوى إلّا بذلك، فرشوا الأرضيّات بالحصير، وتركوا السقف مفتوحاً على السماء، ولما سدّوه ظلّت السماء راسخة، وإذا بدا للزائر الغريب أن البيوت والرجال والترعة والسماء والأشياء كلها تستند إلى المسجد، فإنه قد يفطن إلى أن المسجد يستند إلى الأسرار، وأن إمامته بعض أسراره، لم يكن هيامي الشديد بالمسجد بدعة، كنت في المولد النبوي أجد أنا وأخي وأختي حصانين وعروساً من الحلاوة وضعتها يد أبي على أحد الرفوف، كان صانع حصاني قد زيّنه بما لديه من قصاقيص ملوّنة وترتر وحبّات لؤلؤ مغشوش، كنت أحلم دائماً، ولم أفعل قطّ، أن أذهب بحصاني إلى المسجد، فيراه الله والإمام والشيخ نبوي، ولقد جعل الأهالي إمامة مسجدهم لواحد منهم، يعرف أوراقهم المستترة وأحكام الميراث ونصيب الزوجة العاقر، ونصيب الولود، ويعرف كيف يحضّ المرأة على الاستجابة لمتعة زوجها، وكيف يصرف الرجل عن شكوكه وظنونه، يفهم الأنفاس المكتومة، فإذا استطاع أن يروّض المتعبين، أن يزيح عن صدورهم الشقاء، ابتهج وهو يسمعهم يصدرون تنهيدة من وجد الراحة، بعد جهد، لقد جعل الأهالي إمامة مسجدهم لواحد من الذين لعبوا في الحارات وهم أطفال عراة، وشربوا من الأزيار على أبواب البيوت، وقضوا حوائجهم في الخرائب، وحكّوا أدبارهم في تراب الأرض، ورأى الجميع عوراتهم المكشوفة واعتادوا ذلك، ولكنه تميّز عن سواه بأن حفظ القرآن وزامل المجاورين بالأزهر، وآكلهم خبزهم، وحصل على الشهادة العالمية بكسر اللام والميم كما صحّح لنا، وشرع يعلم الأطفال الجدد في الكتّاب الوحيد الذي يشرف عليه وتتعالى الأصوات فيه، الصوت الصولو للشيخ: بسم الله الرحمن الرحيم، وصوت الكورس للأطفال: بسم الله الرحمن الرحيم، الصوت الصولو للشيخ: ألهاكم التكاثر، وصوت الكورس للأطفال:

ألهاكم التكاثر، صباح كل جمعة تبتلّ الأرض بمياه الغسل والطهارة التي تدلقها نساء يخرجنَ إلى النوافذ والبلكونات بقمصان نوم لامعة وأذرع مكشوفة، شعورهنّ عارية ومبتلّة، يدلقنَ المياه بزهو الشبعات المتخمات المرغوب فيهنّ، وغير المغضوب عليهنّ، وإذا رفعت إحداهنّ إناءها إلى أعلى ظهر إبطها المنتوف، وإذا حدّقت إلى عينيها ـ فعلت ذلك وأنا كبير ـ رأيت في العينين جوعاً لا ينتهي، وقلت لرفيقتك: امرأة تندبّ في عينيها رصاصتان، فإذا سألتك: وما الرصاصتان قلت: لا أعرف، وإذا دخلت وتوارت ستراها تخرج ثانية كأنها تراقب زوجها لحظة خروجه إلى المسجد بملابس بيضاء نظيفة، في صباحات الأيّام الأخرى، قد تراها تنشر على حبال غسيلها المطلّة على الجيران أعني على الشارع جلابيب وفساتين وبلوزات وقمصان نوم وبعض كيلوتات وبعض سوتيانات، كان أجملها الأسود، ولمّا تفرغ من نشرها تتلفّت كفتاة شاردة، وينكسف وجهها إذا لم تشاهد رجلاً واحداً يطلّ عليها، قد تقنع بعيون امرأة، في تلك الصباحات، وبعد أن ينصرف الرجال بوجوه جهمة مغلقة على أعمالهم، كأنهم فجأة أصبحوا رجالاً بلا نساء، سترى عدداً من النسوة الشابّات يتسلّلنَ إلى تلك الشقّة في الطابق الثاني في البيت المجاور، على يمين بيتنا، حيث تنتظرهنّ صاحبتهنّ، وهي امرأة ذات زينة، تتغندر وتقضي معظم نهارها في البلكونة، وإذا نظرت إليها أدامت النظر إليك، وهي مطمئنّة غير مخدوعة في اطمئنانها، معها سلاحها في الحياة، ذلك الجمال الذي لا أهمّيّة له، إذا لم يفطن إليه الرجال، وعندئذٍ تضيف إليه الخلاعة وتخفيف الأجزاء الظاهرة لتدلّ على خلاعة الباطن ونعومته، مرّة خرجت إلى البلكونة بالكومبيلزون ورأتني فادّعت ملامحها أنها فوجئت، دخلت وعادت تضع بشكيراً على كتفيها، هكذا، كأنها دفعتك إلى السرير، هيّجني تصّرفها بصورة مخيفة، ومددت يدي خفية لأتحسّس أعضائي وأعدّلها، في شقّتها يبدأ الطقس الذي لا مواسم له. وإن زادت وتيرته قبل الأعياد والإجازات، كنا نشمّ الرائحة الزكيّة للحلاوة التي يصنعنهامن الماء والسكر

والليمون، لمّا سألت أختي، ضحكت، وأصرّت على الصمت، ثم يتركنَ الخليط على النار حتى يغلي ويسمك بالتدريج، ويصبح في النهاية مثل الأسرار، لدناً ومطاطياً، يصلح لإزالة ما يلتصق به من الشعر والزغب، قيل إن كثافة شعر النساء في الكهوف تشبه كثافته فوق الجبال، أحدنا استطاع أن يسرق قطعة من الحلاوة، وتذوّقناها وحلمنا، كأن أحد الرسامين يبلّ ريشته بعرقه النازف ويرسم أشباح محظيّات مستلقيات على ظهورهنّ، ورائحة الحلاوة تحيطهنّ مثل هواء مبلول، وسيقانهنّ مفتوحة، وكل ساق على شكل الرقم ثمانية (٨)، وفيما بين السيقان يرسم أشباح محظيّات أخريات معتمدات على ركبهنّ، ومنكفئات، يلصقنَ العجائن بهمّة في أماكن لا يسمح الرسّام لنا بأن نراها، ثم يسحبنها بسرعة، وصوت وحوحة لا يخفت إلّا بعد ذلك بزمن طويل، وليس للنتف نهاية سوى الضحك، لو أن أختي كانت بينهنّ لسألت الصاحبة: ماذا لو أتى زوجك الآن ورآنا هكذا، لو أن زوجة خالي المهدي بينهنّ لسألت: هل استمتعت معه آخر مرّة، المرأة الصاحبة، جريئة حتى الهلاك، سمعنا أنها تدخّن السجائر عاديّة ومحشوّة، وأنها علّمت ضيفاتها، وضحكت على نقص مستوى فضولهنّ، فشعرنَ أنهنّ سجينات، سمعنا أن زوجها يفكّر في تبطين باب شقّته بمادّة كاتمة للصوت، لأنها تغنج بشراهة، الغريب أنه في أثناء ذلك يرفع صوت الراديو، ويضع المؤشّر على محطّة القرآن الكريم، وبقدر اندفاعها في الغنج الذي لا يتوقّف كانت تعشق أخا زوجها طالب الطبّ المقيم معهم، قيل إنها راودته، وإنه استعصى، ولما استعصى صبرت عليه وراقبته، فرأته يتلكّأ في الطابق السفلي، أمام الشقّة التي تسكن فيها إحدى السيّدات الجميلات، لها ابنة مراهقة تلبس الجونلة الزرقاء والفيونكة الزرقاء، وتذهب إلى المدرسة الثانويّة، رأتها تخرج، ورأته يتبعها، رأته يقبّلها في بير السلّم، حكت لي أختي أن طالب الطبّ والطالبة يمارسان الجنس الجافّ لتظلّ عذراء، أختي لم تقل ذلك بالضبط، ولكنها قالت بعد أن احمرّ وجهها، إنه يفرّش لها، أي يحكّ شفرتيها

بعضوه دون أن يولج، قلت لأختي: اسكتي، الصاحبة أشاعت ما تعرف، وعادت إلى الطالب ومعها أسلحة من الأسرار، فاستعصى، ولم تحتمل، فأبعدته عن المنزل، قالوا عنها: إنها لا تهدأ، وإنها مصابة بالسودا، وذكروا أسماء نساء مصابات بها، قالوا: إنها أقوى من عشرين رجلاً يجتمعون عليها، ويلتهمون فرجها، ويتسّاقطون، وتظلّ كالملكة فوق عرشها، قالوا: إنها إذا اهتاجت حلّت تكّتها وسمحت، وإذا لم تجد أحداً استخدمت أصابعها بمهارة، قالوا: إنها تفطر إفطاراً جيّداً، أنواعاً من الجبن بيضاء وصفراء، وزيتوناً، وبيضاً مقلياً أو مسلوقاً، وعسل نحل، وعصير برتقال، وقهوة، قالوا: إن لديها سروالاً داخلياً مخرّماً يستر فيكشف، ويكشف فيستر، وأنها تلعب الورق في الليل مع زوجها، وأنها تصرّ أن تكون فوقه إذا ضاجعته، قالوا: إنها تأمره أن يلحسها، فيلحس، وأنها تنخر في أثناء ذلك، بسببها كانت أحلامي تدخل أحياناً في غيبوبة، فأظلّ مصلوباً معلقاً على حلم واحد في آخره أنبذ كمجذوم فقد عضوه داخلها، كل يوم جمعة، كانت الوحيدة التي لا تدلق مياه استحمامها من البلكونة، ولا تنشر ملابسها الداخلية، وكان زوجها لا يذهب إلى المسجد، كنّا لا نراه إلّا نادراً، وإذا مرّ لا يحيّي أحداً، كأنه يعطيها ويعطينا حرّيّة أن نتجاهله ولا نرعى حرمته، في المسجد يخطب الشيخ الإمام خطبته الرتيبة، يسمعها المصلّون جادّين مخلصين صادرين عن فطرتهم، ثم يميلون بخشوعهم جهة اعتياد الخشوع، فتظنّ أنهم أصيبوا بمرض غريب دواؤه انتهاء الصلاة، بعيد الانتهاء يتفرّقون كقطيع أذن له الراعي بالانصراف، إلّا من يتلكّأ لحوار أو لشراء أو لبيع أو لفرجة، تراهم ولا ترى فيهم وجوداً للفردية المستقلّة عن سائر الجماعة، إنهم الكل في الكل، ليسوا الكل في واحد، وليسوا الواحد في الواحد، أمّا إذا غاب الشيخ لأيّ سبب، فسوف ينوب عنه أحد طلّاب الأزهر، يصعد المنبر، وبيد يمسك الميكروفون، وبالأخرى يمسك الورقة التي يقرأ منها، ويفقد بذلك إحدى المتع الكبرى، التشويح والتلويح والإشارة والنتر، وكفّ اليد إذا شاء التهدئة، ذات جمعة

صعد المنبر رجل غريب، يلبس ثياباً إفرنجيّة، القميص والبنطلون، وفيما بعد رأيناه يلبس البدلة التقليديّة السوداء ذات القميص الأبيض وذات ربطة العنق الداكنة، أعرف اثنين يلبسان مثلها، الشيخ حسن أبو نصر ابن خال أبي وزميله في حفظ القرآن والذي أكمل علومه بالأزهر واجتاز العالميّة، وناظر مدرستنا، منظّر الرجل الذي صعد المنبر يجعلك مرحاً لا تطيق السكون، يجعلك مستعداً لإطلاق بعض الصيحات: **الله، الله**، يجعلك تحسّ كأنك وجماعتك ظفرتم أخيراً بغنيمة كبيرة، فيجيش في داخلك فيض من العواطف، يبحث عن منفذ لا يكون إلّا بالرجوع إلى وجه الرجل، وإعادة الاستماع إلى كلماته، هكذا أتذكّره في أحواله كلها، صعد المنبر، ووقف دون ورقة، دون لجلجة، دون ورع ظاهر،: «الحمد لله الذي خلقنا لنعبده، وخلق الأرض لنعمرها، والسماء لنستظلّ بها، والأنعام لنستعين، والصلاة والسلام على سيّدنا رسول **الله**، سيّد المرسلين، وخاتم النبيّين وشفيعنا يوم الدين، بعد الديباجة، ارتجل خطبته فكانت مزيجاً من حكايات خياليّة عن الملائكة والشياطين والجنّ والعفاريت والأرض والسماء والأولياء والأئمّة والفراعنة، وانتبه المصلّون، رفعوا رؤوسهم على غير العادة، حملقوا، انبهروا بفنون الخيال واللامعقول التي عرضها الشيخ طاهر، هكذا كان اسمه، فجبهة كل ملاك تسَع الأرض والسماء، وساقه أطول من المسافة بينهما، بعض الملائكة ذوو أجنحة، بعضهم ذوو أسماء، وهناك سور الصين العظيم الذي يحجز عن دنيانا قبائل اليأجوج والمأجوج، القبائل الجائعة النهمة الراغبة أن تأكلنا، وفي سبيل ذلك تلحس الجهة الأخرى للسور بألسنتها، ولمّا يشفّ ويصبح مثل ورقة السيجارة اللّف، وتكاد معه أن تحقق القبائل رغبتها، يعود السور إلى طبيعته الخام الأولى، سميكاً مصمتاً، وتعود جماعات اليأجوج والمأجوج إلى اللهاث واللحس، كنّا نسمعها تلهث في حنجرة الشيخ طاهر، كنا نخفض رؤوسنا ونخاف، ولمّا نرفعها ثانية، نراه كالملهوف يحكي عن الفراعنة، وكيف في يوم الكشف عن توت عنخ آمون، كيف

تسلّل أفعوان الكوبرا النادر وجوده في مصر والمنعدم في فصل الشتاء، إلى بيت المستر هوارد كارتر، والتهم عصفوره المغرّد، الكوبرا هو رمز الملك وروحه، انتقم من رئيس المنقّبين، وحكى عن اللورد كرنارفون والمسز سميث والخادم المصري والتابوت الخشبي المطلي بطبقة سميكة من القطران اللامع، وله عينان صفراوان وشوارب صفراء أيضاً، وداخل التابوت جثمان قطّ محنّط، جعلنا الشيخ نكره الفراعنة، كنا نعجب كيف يحفظ أسماءهم ووصاياهم، ويذكرها دون أن يغمض عينيه: من اعتدى على مالي أو خرّب قبري أو أخرج منه مومیائي، فإن الإله الشمس ـ أعوذ بالله ـ سينتقم منه، ولن يورث أبناءه أملاكه، ولن يسعد قلبه في الحياة، ولن تسقي روحه ماء في القبر، وسوف تهلك إلى الأبد، من دخل قبري فإني منقضّ عليه كأنه عصفور، وسيعاقبه على ذلك الإله العظيم، صادفت الوصايا من الكتب التي نقل عنها الشيخ طاهر، فتذكّرته وتذكّرتها، في أيّام الجمع التالية، امتلأ الجامع ببشر يأتون من الأطراف، آملين أن ينسحروا به، وامتلأ الهواء بجاذبيّة لا تقاوم، كنت إذا لجأت إلى السرير لأرقد رافقتني عيون القطط المحدّقة بي وسمعت فحيح الأفعوان، وتراصت المومياوات أمامي، فإذا مددت ذراعي إلى إحداها فقدت ذراعي، وأعادتها إليّ أصداء أغنية أمّي وجدّتي، اللتين تتواجهان وبصوت مزدوج تنشدان: يا ابو الزبون الجوخ، يا عاوج العمّة، ولا، شمروخ، ليه يا وله، وهكذا أمدّ ذراعي وأفقدها، وأسمع الغناء وأستعيدها، والشيخ طاهر لا يظهر إلّا مثل شبح يقف بباب الغرفة، هكذا أسرفنا في المحبّة فصنعنا بروفة للكراهيّة، الإمام الرسمي ومعاونوه لم يحتملوا تلك الجاذبيّة، ذات صباح قال لي يوسف وحمدي زميلاي حين أقبلت عليهما وعلى فمي ابتسامة: لماذا تضحك؟ أجبتهما: هه، سألاني: ألم تسمع ما يقال؟ قلت: ماذا تعنيان؟ قالا: الشيخ طاهر، قلت: ما له؟ قالا: يروّجون أنه يعشق الغلمان، ووجمنا نحن الثلاثة، عرفنا أنهم الكهنة السدنة، ومعهم ذخيرة كافية من الحجارة والتراب يقذفونها على النوافذ والعيون، هذه هي الخزانة، مخلوقات ملتهبة،

ساديّة ومازوكيّة واغتصاب عصابة لأحد المنحرفين واستمناء وجنس عن طريق الفم، وجنس مع مصّاصي الدماء وسواعد وسيقان تتلوّى كالأفاعي وأصوات حيوانات وموسيقى رمانطيقيّة (رومانسيّة) زائفة وأغاني روك وألحان تجارية مفتقرة للذوق، وأحلام وكوابيس افتقرت إلى الصقل وعدم الرغبة في الانضباط أو تعلّم قواعد الصنعة، التقطيع عشوائي ومرتبك والصور غير واضحة والصوت رديء، هذه هي الخزانة التي سأفتحها كثيراً عندما أكبر، والتي ستظلّ خزانات تضاهيها تتناوب وتنفتح وتنغلق طوال طفولتي، تحت قميص الشيخ طاهر، وتحت بنطلونه، تحت جلده القمحي وانعدام وسامته، تحت غموض عينيه وذرابة لسانه، أصبحنا أنا ويوسف وحمدي مثل الورق الناشف أحياناً، ومثل ريح صغيرة قبل أن تهبّ لتلعب، تطاردها قطط كبيرة، أو عقارب يافعة، لم نتظاهر بالسكينة، لم نتعفّف ونتحرّج، فنحن لا نجيد ذلك، ما أكثر ما يرويه حمدي عن الفقهاء والشيوخ وأصحاب العمم، لا نعرف كيف يحصل على حكاياته، قال أحد اللاطة: رفعت غلاماً صوفياً فكنت كلما أولجته فيه قال: أستغفر الله، فإذا أخرجته يقول كذلك إلى أن فرغنا، فقلت له: لمَ تفعل ذلك؟ فقال: إدخالك إيّاه سيّئة، وإخراجك إيّاه سيّئة، والاستغفار حسنة، وقد قال الله تعالى: إن الحسنات يذهبنَ السيّئات، فأقوم وليس عليّ ذنب، قال: فقلت له: هذا العلم أخبرت عنه أو لُقّنته؟ فقال: شيخي ذكر لي ذلك، فضحكنا، قال يوسف: لقد طردوا الشيخ طاهر، فأكملت: وطردونا، ومضينا، كانت الشائعة تنتقل في عالم الأشباح الغامضة، الرجال تقمّصوا أجسام الحيوانات، والنساء توارين، الشيخ طاهر تعرّف علينا، وأهدانا مجلّة منبر الإسلام، وأهدى غيرنا، وافتقدناه عندما اختفى، عاد الرجال الكبار إلى المسجد كأنهم النعام الضالّ، واخترنا أن نصبح الحشرات، لنسرح في الحقول، ونختبئ في غرف النوم، مللنا من استنشاق الهواء داخل المسجد الجامع لأن الكبار استنشقوه قبلنا، وهجرنا مشاعيّة المسجد إلى مشاعيّة الحقول، لا يكتمل النهار دون أن نخترقها ونصل إلى

حافّتها ونجلس، أمامنا مدرسة النقراشي وأسوار القصر، المسجد لم يعد هدية الله إلينا، الطبيعة هي هديّته، في صيف ذلك العام سافرت إلى منيل الجدي، قرية في الدلتا، تعيش فيها عمتي فاطمة وأولادها الأربعة، تآلفت مع العمّة، ومع الذريّة، ومع الطبيعة، ومع الكلام الفاحش الذي تسرّ النساء به وتضحك، كانت إحداهنّ تحاول أن تمسكني وتجسّني هناك وتسألني: هل أصبحت رجلاً؟ والأخريات يضحكنَ، وكل منهنّ تسحب طرف شالها وتغطّي به فمها، فيما تقول إحداهنّ: اتركيه يا آمنة، الجدع مكسوف، وتسألني: إنت صحيح مكسوف، ولمّا لا أردّ، تقول لي: تعال هنا، تعال، تعال إلى جانبي، أم تحبّ أن نبتعد ونصبح وحدنا، نحن أسخن من نساء مصر، ثم تحضّنني بحنان، واحدة منهنّ فاجأتني وأمسكتني هناك بغلّ وقسوة، كدت أبكي، النسوة نظرنَ إليها نظرات أسرار وفضائح، وجه المرأة سائر نحو جنون أعمق، خطفنني منها، وتوالت طبطبات أيديهنّ على رأسي، إنه عبث الساعة الأخيرة، أرواحهنّ متعطّشة، وشبقهنّ بسبب الوجود الجماعي لا يتلعثم، فيهنّ من قالت: معذورة والله، وقالت هانم بصوت يذوب محبّة وشفافية: أحسن، وقرصت أذني وفركتها، حيطان بيت عمّتي طينيّة سميكة بها تجاويف تصلح كخزائن مفتوحة، في إحداها وجدت كتباً بينها كتاب عن التلاوة والتجويد، كان ابن عمتي الأصغر يدرس بالأزهر، وينادونه: يا شيخ عيد، ورأيه لا يُردّ، وهذه بعض كتبه، الكتاب الذي أثار اهتمامي مزوّد بالصور، قرأت ورأيت الشيوخ مصطفى إسماعيل ومحمد صديق المنشاوي ومحمود علي البنّا، واصطفيتهم من بين الآخرين، وأصبحت فيما بعد أنتظرهم على الراديو قبل نشرة التاسعة مساءً، ثم أنتظر لغتنا الجميلة، في طفولتي وصباي أحاديث طويلة عن الحرب القادمة وعن الوحدة العربية وعن التأميم وحرب اليمن والاتّحاد القومي وكمال الدين حسين وعبد الحكيم عامر، والمسجد الجامع، المسجد الجامع يحاذي الترعة، ثمّة جسر

عريض يوصلنا إليه، والترعة في بعض مجاريها تتّسع وتصبح مخيفة، سمعنا عن غرقاها الموسميّين، وكانت أمهاتنا تحذّرنا من الكلاب والغرباء والكبار والبنات، وتحذّرنا من غشيان الترعة والجمّيزة، صباحاً أو مساءً، أمّهاتنا يسمّينها جمّيزة الأجرب، ينطقن الاسم بهمس كأنه الحكمة القديمة والعفريت القديم والسحر القديم، الترعة حدّ الجميزة تتحوّل إلى شلّال، في كل مرة تأمرني أمّي بحزم: لا تذهب ناحيتها، الآباء لم يكونوا ليقتادوا أطفالهم إليها، في النهار يطوف حولها المحبّون الصغار ومحبوباتهم، والطلّاب والعابثون، وفي الليل يتجنّبها الكبار فتصبح مكاناً ملائماً للعشّاق ومعشوقاتهم، وللّصوص، في أكثر من مرّة صحونا على حكاية أن شاباً من الأحياء الراقية المجاورة أتى مع فتاته ليلاً، وتربّص به بعض الشبّان الصعاليك، وأخافوه فجرى، واغتصبوا فتاته، وذات مرّة غيّروا النهاية، وحكوا أنه عندما شرع الشبّان الصعاليك في اغتصاب الفتاة طلع عليهم الكيلاني الذي هاجمهم وهاجموه لكنه انتصر في النهاية، وأصبح الكيلاني أحد أبطالنا، ذهبنا أنا ويوسف إلى الترعة جهة الجمّيزة بدافع الفضول، كنّا من شدّة الخوف نتلاصق ونتماسك، تقبض يده على يدي، وكذا تقبض يدي على يده، همس لي: أنا خائف، همست: وأنا أيضاً، إن وصف حالتنا مهما بلغت إجادتي، سيظلّ أدنى من حالتنا، لم نشعر بالغيرة من الصبيان المغامرين الذين يسبحون ويغطسون في الترعة، أذكر الآن أن أكثر الناس شهرة وذيوع صيت أيّامها كانوا الشيوخ الذين يخيفوننا من الله، والشبّان الأقوياء الذين يخيفوننا بقوّتهم، أحدهم كان يمضي خلف خيوط النهار، ولما تتجمّع الخيوط وتختفي، يختفي مثلها ولا نراه إلّا في اليوم التالي، يصحب ابن عمّه ويحثّان الخطو نحو بيتنا، ثم يعبرانه، وشعرهما يتناثر إلى الخلف بتموّجات الفازلين والكريم، ابن عمّه لا ينظر ناحيتنا بتصميم، ينظر أمامه مثل أعمى، مثل إنسان آلي محكوم بتعليمات سرّيّة، في أحيان قليلة كان يمرّ بمفرده، فيسرع أو ينحدر حتى يغيب، لمحت بعض ابتساماته، لمحت بعض ابتسامات أختي،

اعتقدت أنها ليست لأحد، أختي تبتسم لنفسها، هي ليست باردة، لكنها جشعة عاطفياً، دائماً هي في شوق شديد لشيء غير عادي، إذا نادتها أمّي: نادية، يا نادية، يا نادية، هكذا كانت تناديها أمام الغرباء، لا تجيب إلّا بعد المرة الثالثة، في تلك الفترة كانت تصارع من أجل فسخ خطوبتها لابن عمّتي، عيناها لامعتان دائماً لمعان عيني نيزك، وجسمها مثل سيخ محمّى، والمكان الذي بسبب وجودها يصير ضاجاً صاخباً، في غيابها يصير كئيباً، أحياناً ينشع عرق خفيف على جبهتها، وتحملق، فإذا مشيت بخفّة على خطّ بصرها وجدته ينتهي عند رجل هائم يحمل حمامتين اشتراهما وحارَ بهما ماذا يفعل، في مرّات كثيرة ستحضنني وتحيطني بذراعيها كأن نيرانها تعصف بي، وتحرقني، أختي ذات الساقين والوركين والخصر والنديين والشفتين والعينين وذات الجرأة وذات الطموح إلى اصطياد الفضاء الأزرق والفصول الأربعة، كانت تنام كيمامة، وتنشط كيمامة، وتتلذّذ كيمامة، كنّا ذاهبين معاً إلى طنطا، وفي الباص انحشرنا شبه مضغوطين، لكنها فجأة تفزّزت، ونظرت إلى الرجل القصير الذي يقف خلفها، فطنتُ أنه كان ملتصقاً بها وقد ألهبته حرارة الفتنة فحصل معه انتصاب هكذا هكذا، ذات مرّة، مرض أبي، وأحطناه مشغولين ومعتادين على طريقته في المرض، كنت أيّامها في الجامعة، في خيالي أسيجة يخترقها لصوص، فيه يقظة نائمة، فيه هلاوس وأطياف، فيه عاطفة نظيفة تصارعها عاطفة عطنة، وكنت أرى ما لا يراه الآخرون، وأّدعى الإشراق، أّدعى الإشراقات، أختي زوجة وأمّ لثلاث بنات وولد، ووجهها ساخن كما كان منذ مراهقتها، طلب أبي كوب ليمونادة، انصرفت أختي لتعدّه، ولمّا تأخّرت، خرجت أستعجلها، ففوجئت بهما متجاورين في المطبخ، ظننت أنهما يلهثان مرتبكين، مثل اثنين اضطرّهما ظهوري إلى تعطيل ما كانا يقولانه أو يفعلانه، كانت تنهّداتها مرتفعة وسريعة تستدرّ عطفي، وتثير غضبي، وابن خالي مثل بقية المخلوقات العجيبة التي ترتبك ولا تبحث عن عذر، كنّا نحن الثلاثة نكمل بعضنا كجحيم عابر، كل منّا نار الآخر،

ابن خالي انسحب ومارس أخلاق سلالة زائلة، خرجت ووجدته إلى جوار صفا أخته، ثروة صفا من الجمال والخصوبة أكثر من ثروة قرية بتمامها، كانا قرويّين جداً، هو قلبه عليل ووجهه ساذج ووسيم، وهي تلّ المحارم، كنت إذا انفردت بها أراودها وأحلم أن تهبني قوامها المفرود، ولكنها كانت تفضّل أن تلقيه في غرفة مظلمة على فراش مهجور على أن تعطيه لرجل آخر، زوجها ابن عمّها، أمّها قد تكون حروناًلكنها تجلس طول عمرها في ردهة الانتظار، على أمل أن تجد من تصيح تحته: افعل بي ما تشاء يا ابن الكلب، افعل بقوّة، أمّا هي فمثل قرص العسل، تحبّ أن تحتمي بغطاء، ما زالت عيناها الهازئتان مغروستين في لحمي، أشكّ في أنني عندما دخلت المطبخ كنت أسير رغبتي في أن أرى أخاها يعزف لأختي اللحن الذي عزفته لأخته، فتعادل، أشكّ في أن صورة ماجي التي اضطجعت مع الجميع ومع أخيها الشقيق ممّا أدى إلى جنون جورج زوجها كانت خلف ظهري، كنت أختبئ أسفل السلالم وأتشمّم الظلام مثل قطّ قذر، وأغار من كل باب يفتح، وكل دهليز يقف فيه شابّ يعترض العابرات، عندما مات صبحي بكيناه أمّي وأختي وانا، أخته صفا، وأخوه محروس، وأمّه أمّ كلثوم، وابوه المهدي، كانوا مقهورين، كانوا مثل خيوط لعاب تتحرّك في فم الله ويمسحها الملائكة، مات صبحي، كأن شجرة خضراء حاولت أن أرويها بماء مالح يشبه مائي سقطت فوق رأس أختي التي تفادتها وظلّت تطرف وتدير عينيها، وكنت أشعر بعطف عليها ومرثيّة لها، ولما تعبنا من الروغان بعيوننا، وأحسست بها كصندوق دموع يوشك أن ينفجر، آثرت أن أتركها وحيدة، وانصرفت إلى يوسف، صورته حتى الآنْ تحيطها هالات الجمال والذكاء والخفّة، وإن كان يميل إلى بعض الاستعراض، كأن يمشي من بيته حتى يقترب من المدرسة، ولّما يوشك أن يصل، يوقف أحد التاكسيات، يركبه لينزل منه أمام المدرسة وأمامنا، ويعطي السائق أجره من النافذة، يوسف يشبه دميان، يشبه هرمان هيسه في قلبه مغناطيس يتكّ تكّة واحدة كلما التقط شيئاً ما، وفيه رغبة أن يكون مثالاً أعلى، فم

يوسف لا يذبل أبداً، لم يكن أفلح، ولكنني كنت أرى مسافة بين أسنانه، بيت يوسف ليس بعيداً عن بيتنا، زرته ذات صباح واستقبلتني أمّه، عرفت على الفور أنها تعشقه لأنها أورثته جمالها، ولأنها قالت لي: تفضّل يا حبيبي، هل عوّضني أحد عن يوسف الذي ضاع، عندما أستعيده أتجوّل معه لأرى العصافير بلا مناقير، والنساء بغير كيلوتات كما ينبغي، والشجر نائماً على ظهره، والنيران تشبّ في أرحام مجهولة، وتفور من حلمات اكتملت وتعبت من اكتمالها، عندما أستعيده أراه يمشي تحت شمس توشك أن تغرب ليصل ميدان ابن سندر، ثم يكمل ويصل ميدان روكسي، ويوقف حركة السير بإشارات من يديه تشبه تلويحات شرطي مرور أو مايسترو، ولمّا أعبر الميدان يتلاشى الضجيج الطاحن، فأقول لنفسي: لقد أوتينا من المرونة قدراً كافياً يا يوسف، ومهما تبدّل الحال، فكل منّا قادر على رياضة نفسه لتسكن، والأيّام يا يوسف لا تزال تنتقل بنا من كذا إلى كذا، ونحن ما زلنا ننتقل معها، فخير لي ولك أن نعرف أن الطريق الطويلة قصيرة، وأن نشتهي ولا نجزع إذا لم تتحقّق الشهوات، خير لنا ألّا ننبش كثيراً قلوبنا بأصابعنا، فكلما نبشت قلبي بأصابعي، وخرج يوسف من أحد جروحي متوسّطة العمق، خرجت أختي من جروحي الأكثر نفاذاً، أشكّ في أنني كنت مغرماً بها، كانت إذا نامت على سريرنا العالي ذي الأعمدة الأربعة والناموسية البيضاء، أتسلّل وأنام تحت السرير، وليس لديّ أيّ طموح مهما كان، عدا أن أنام هنا، وأن أراها تصحو وتتثاءب وتسرّح شعرها وتستبدل ملابسها، تضيق بكل شيء، فتلبس جلبابها على اللحم، أشك أنني كنت أشتهيها، أنا الطفل الذي كنت، وأنها ربّما كانت مغرمة بي، غراماً لم نعرف طبيعته، ولم نعرف إذا كان من النوع المسموح لنا أو غير المسموح لنا، كنّا صغاراً، وعندما كبرنا، صارت تحبّ من أحبّهم، تفرح باستضافتهم، تسألني عنهم إذا غابوا، كان إبراهيم الأكثر جمالاً بين أصدقائي، يلفت نظر النساء بمجرّد ظهوره، وإذا زارني، وجلسنا معاً في البلكونة، أخذت الفتيات في البلكونات المجاورة، تترنّح

بين الدخول والخروج، للنظر إليه، ولإجباره على النظر إليهنّ، وعلى الرغم من أنه كان قليل الثقة في نفسه، فكل فتاة عرفها، بهرها جماله قبل اللقاء الأوّل، لكنها عادة تهجره بعد لقائين، فيعوّض عن كل ذلك بتربية الحمام وسماع هديله، وشراء قمصان جميلة والاكتفاء بكتب الفوازير والنكات والطرائف، يمشي على الأرض باكتراث شديد، ولا يعرف أن يربّت على ردف صاحبته، وإذا رأى ما بين ثدييها أو ما بين فخذيها، من جديد يحني رأسه وينصرف بذهن شارد إلى تذكّر آخر مرّة شعر فيها أنه مجنون وممسوس، كان يحبّ أن يغنّي أغنيات أمّ كلثوم وعبد الحليم، ويخشى أن يصبح مثل ابيه مزواجاً وعضواً في إحدى الطرق الصوفية، جاءني حائراً ذات يوم، وحكى كيف حاول صاحب أبيه في الطريقة عندما بات عندهم أمس وشاركه فراشه أن يستدرجه، كيف أخذ يتقلّب مثل نائم ثم استقرّت يده، يد الشيخ على عضوه النائم، وكيف استطاعت بدربة وعدم تكلّف أن توقظ النائم وتلمس شدّة وقوفه، حكى لي، أنه قبل دعوة لوطي ـ هكذا قال ـ ليسأله في الخاتمة عن رأيه، كان أخو إبراهيم غامضاً، وأخته أرملة جميلة، أيّامها كنت أقول لنفسي: الشعر طريقي، الشعر بستاني، و أنفر من حكايات إبراهيم، وأكتب كل يوم قصائد، وأضع اللبن في أوان صغيرة للقطط الضالّة، وأحشر نفسي في الشؤون الخاصّة لكل من أقرأ لهم، وأتربّص بالخارجين من الكتب وأراقبهم، علّني أعرف أين يذهبون، وإبراهيم يضحك منّي، ويتسلّى بخرافاتي، الغريب أنه فجأة ومن غير سبب امتنع عن زياراته لي في بيتي، كان يحدث أحياناً أن ألبس ملابسي، وأقف أمام المرآة لأسرّح شعري، فأرى إبراهيم يطلّ عليّ من المرآة مثل ذاكرة مفقودة، وأرفع يدي إلى جبيني، وألمسه برفق، ثم أفركه، وأحاول أن أتذكّر لماذا اختفى إبراهيم، ومع فشلي أهزّ راسي وأمضي، ومثل لمعة برق، فكّرت ولم أستطع أن أبتعد بأفكاري عن نيران أختي وجنّاتها، أفكاري التي تكون أحياناً مثل جذعٍ خشبي يحترق، وأحياناً مثل ملاك وملاكة اختلسهما الصانع من رسوم عصر النهضة، ربّما من سقف كنيسة مجهولة في

ضواحي روما، لمّا انصرفا تركا في مكانيهما رائحة الرباط المقدّس وصورة إكليلين مبلولين، وتركاني في كهف، أدخله إذا ضاقت مثاليّتي وكادت أن تشبه بيضة ستسقط على الأرض، فرأيت أختي واحدة من سكّان الكتاب المقدّس، ومعها سمير عدلي صاحب لوحة كيف تصنع آلة العود، ورأيتني أمارس عملي السرّيّ في محاكم التفتيش، ورأيت سائر البشر عصاة وخطاة وأولاد حرام، عندما أصابتني الحمّى ذات مرّة، حسبت أنني أفقت على التصاقات أختي بي وملذّاتها وأحضانها، حسبت أن الأخوّة صيحة وحشيّة حرمتني من الهمس، عموماً مرّت السنوات الطويلة، أخشى أن يكون عالم الطفولة اليقظ قد تداعى، لم تستطع أمّي ولا أبي أن يقدّما لي معونتهما وأنا أواجه بلوغي، كنت وحيداً بغير مرشد، يوسف لا يفوقني في حظوظ بلوغه، كان أبي وأمّي يجرّانني إلى عالم الكبار بعنف، كأنهما لا يريدان لطفولتي أن تعيش طويلاً، ولذا تصرّفت أكثر من مرّة بشكل رديء، كنت أغافلهما وأدسّ أحلامي تحت الوسادة، أبي لم يكن ينتبه، ولكن أمّي كانت بسبب أنها تغسل ملابسي الداخلية وتشمّ عرقي وتلمس بأصابعها التجلّد واللون الأصفر في الجزء الأمامي من كلسوناتي تنتبه أحياناً وتنظر في وجهي نظرة أسف وعتاب وإشفاق، جدّتي العجوز تجزع بشدّة إذا خطر لها أنني مريض أو حزين أو أحمق، كانت أمّي تكش يدها كي لا تمتدّ إلى رأسي تتحسّسه وتباركه، تمنعها وهي ترغب، فأضحك وأقول: اطمئنّي، تقول: ولكنك تقرأ كثيراً، أخاف على سلامة عقلك وعينيك، فأضحك ثانية واقول: لا تخافي، أمّي تريدني أن أكون أخاها بدلاً من إخوتها الذين ماتوا، عبد المجيد وعبد العظيم وعبد العليم، الأخير هو أسطورة السلالة، لمّا اعترض أهله على محبوبته، لم تفده أغانيه التي كان يغنّيها، ولم يفده طول قامته، ولا ضحكاته الرجراجة، ولا عنقه النبيل، ولا إحراقه لنفسه، سوى أنه مات، لم يبقَ حيّاً بين إخوتها غير ذلك الخائب، المهدي، هكذا كانت تقول، وخالتي أخت أمّي، رأيتها مرّة واحدة، مسكينة، تلهث إذا وقفت، وتلهث إذا جلست، وتلهث إذا نامت،

كان اسمها سكينة، صرت أسمّيهما أمّي وخالتي، الأختان فاطمة بنت محمّد وسكينة بنت محمّد، وأبي يريدني أن أصبح ابنه البكر لأعوّضه أبكاره الذين أورثوه حسرة طويلة، ومع ذلك لم يسئ ظنّه بالحياة، ولم يعتزلها أو ينزوِ عنها، أبي يريدني أن أعوّضه أحمد وإسماعيل وسعيد، وأنا لا أريد سوى الجلوس تحت شرفة إله قادر، أو السعي خلف امرأة تتلوّى من أوجاع الشهوة المفقودة أو من أوجاع الشهوة الموجودة، لا أريد سوى الكسل في آناء الليل وأطراف النهار، شرط أن أكون وحيداً، لا أريد سوى معرفة الأسرار، لم تكن الصحف تدخل بيتنا، وأوّل راديو اشتريناه كان أحمر كبيراً من طراز أوائل الستّينيّات، فيليبس، وأوّل تلفزيون جاء بعده بعشر سنوات، في طفولتي كنت أحبّ الورق، رآني كثيرون وحكوا لأبي ما رأوه، فضحك وتنبّأ لي، قالوا له عني أنني إذا صادفني في أثناء سيري ورقة صحيفة ملقاة على الأرض، انحنيت والتقطتها، وشرعت في القراءة أثناء سيري، لا أريد سوى معرفة الأسرار، والدخول خلسة تحت ظلال البيوت المجاورة، إنني لا أكاد ألقى تحيّة الصباح، في البيت المجاور تطلّ ثريّا من الشبّاك، هذا الصباح ملائم للجلوس قليلاً أمام هذين البيتين المتقابلين، الغوغاء الغوغاء يمرّون كالدود ذاهبين إلى أعمالهم، بابا البيتين مغلقان، في الصباح التالي أستيقظ وأفعل الشيء ذاته، البيتان للأخوين عمّ داود وعمّ حسين، لم أتوصّل مرّة إلى الملامح المشتركة التي تجعل منهما أخوين، عمّ داود العجوز ذو التجاعيد التي تشبه الأغلفة المتّسخة لكتاب قديم، وذو الفم المزموم، غطاء رأسه يشبه قلنسوة ساحر مغربي، وزوجته لم يرها أحد، وعمّ حسين العجوز البشوش الفقيرْ، عيناه تشبهان مسجدين مفتوحين، وفمه يشبه استراحة طيور، غطاء رأسه طاقية صوفية، دكّان بقالته ليس للبقالة فقط، الرجلان قصيران، كلاهما جسمه سائب كأن مياهاً كثيرة تتخلّله، مع فارق وحيد، أن مياه العمّ داود تظل محبوسة وتضايقه، فيما مياه العمّ حسين تسيل خارجه فنغسل وجوهنا ونشرب ونرشّ الأرض، لم يحدث أن رأيناهما معاً، دكّان العمّ حسين

يجذبني، إذا ذهبت إليه، يسألني: ماذا تريد؟ أقول: حلاوة طحينيّة، يسألني: لك ولّا عشانك، أقول بثقة كاملة: لي، يسألني: يعني مش عشانك، فأجيبه بثقة ضعيفة: لا، عشاني، فيراجعني: يعني ليست لك، أصمت، ابن عمّ حسين أكبر منّي بسنة واحدة، اسمه المرسي، وننديه: يا مرسي، وعلى الرغم من اسمه الجميل، كان فاسداً، كأنه ذنب أبيه، ذنبه الوحيد، ابنة عمّ حسين، آمل أن تخرج باسمها من وراء عتمة الذكريات، لعلها ياسمينة، أحببناها جميعاً، عندما تزوّجت أصبحنا نشير بأصابعنا إلى بيتها الجديد الذي انتقلت إليه، كأنه على مقربة، على الرغم من أنه يبتعد عنّا بما يزيد على عشر محطات أتوبيس، استفسرت: وكم يبلغ طول محطّة الأتوبيس، قيل لي: يساوي المسافة من بيتكم إلى جمّيزة الأجرب، قيل لنا: بيت ياسمينة الجديد في غمرة، وبيتنا في عزبة رأيت صاحبها في أخريات أيّامه، كان قصيراً، رموشه متقصّفة، لا يرى البعيد، في صوته تسمح خشخشة الأعشاب الجافّة، إلّا إذا مرّت امرأة قربه ووقفت، عند ذاك يبتلّ صوته، نظرته موزّعة على تذكّر الماضي والحلم بالنساء، زعموا أنه منذ شبابه لم يكفّ عن مطاردة النساء والزواج ممّن تستعصي، حتى بعد أن اصبح يعاني من الشيخوخة والمطارحات الفاشلة، تردّد في بيتنا أنه نادى أبي وقال له: لك بنت جميلة، هل تزوّجها لي، كان يعرف قبل غيره أنها في السابعة عشرة وأنه لن يستطيع أن يطرحها على ظهرها ويقوم فوقها، من أجل زيجاته ونسائه الأخريات باع الرجل أرضه قطعة قطعة، وتخلّت عنه نساؤه، بيت ياسمينة في غمرة، وهي ضاحية من ضواحي القاهرة، تحفّها أحياء الظاهر والعبّاسية ورمسيس، بيتها كان عالياً، كأنه شارع رأسيّ، فوق قمّته لافتة كبيرة تحمل إعلاناً لعله كان عن الكوكا كولا، الإعلان يضيء في الليل، فنميّز البناية بارتفاعها في النهار وبالإعلان في الليل، البناية مكوّنة من أربعة عشر طابقاً، سمّيت بعدد طوابقها، عمارة الأربعتاشر دور، هذا العلوّ أقنعنا بأن ياسمينة قد ارتقت بزواجها، عندما يظهر المرسي بملابس نظيفة وحفنة شيكولاته وحلوى،

نعلم أنها تزورهم، لم أكن أحبّ اللعب مع المرسي، فقد كان الولد الذي لا أرغب أن أكون شبيهه، ولا أرغب أن أكون نقيضه، إنه لا يشبه الموت، ولكنه مثل أربعين الميّت حيث الحزن وقد أصبح فاتراً، المرسي لا يخلو تماماً من الفائدة، فأكاذيبه تفتح الباب على ما لا نعرفه، وصدقه النادر يتمّ أكاذيبه الكثيرة وينظمها في عقد، كنت إذا رأيته يجلس بين ولدين أو أكثر، أخمّن ماذا يحكي، فأذهب بعفوية إلى يوسف، عندما أترك يوسف وأعود إلى البيت وأنظر إلى وجه أختي، أحسّه يشبه وجوه شبّان رأيتهم يمرّون أمام بيتنا، وآخرين دخلوا بيتنا، أو أقاموا وسكنوا في بعض حجرات بيتنا، عبده شعير وماهر الشوبري والشيخ عبد الباسط ومحمّد الباشا، فأنظر في مرآتي المعتمة، وأحملق في وجهي، وأخجل من ارتباكي، وأحلم، وفي طريق خروجي من الحلم أرى ثانية بيت العمّ داود، والذي لا يدخله أحد، بيت واسع، ومن طابق واحد، بوّابته خشبيّة عالية وكبيرة ومصمتة، ومغلقة دائماً، لم نرَها مفتوحة ومشرعة، ولم نرَ للبيت ظلالاً إلّا عندما أنجبت زوجة العمّ داود مولوداً ذكراً، بعدها اعتدنا الاحتفال السنوي بميلاد الطفل، ليلة الاحتفال صادفت ليلة المولد النبوي، فالتزموا بليلة المولد، بوّابة بيت العمّ داود غير مزوّدة من الخارج بقبضة يد حديديّة تتيح للزائر أن يدقّ الباب، فيدقّه بجماع يده، في صباح المولد ترشّ النساء أرض الشارع بالماء النظيف، ويفرشنَ السجاجيد والأكلمة والحصير، ويجهّزنَ دوارق المياه المخلوطة بماء الورد، وفي الليل يفد الرجال، وقبل انقضاء وقت طويل يزدحم المكان، رجال من جهات لا نعرفها، بعضهم رجال الدنيا جاءوا يؤدّون واجبات الدنيا، وبعضهم رجال الله جاءوا لأنفسهم، كان أبي يدعو ربّه ويقول: اللهمّ احفظ رجالك من شرور رجال الدنيا، ولمّا يصل المنشد الديني وبطانته، يقف الجميع، يتراصّون في صفوف، المنشد يلبس جبّة وقفطاناً وعمامة محبوكة على رأسه، يكون هادئاً في أوّل الذكر، الرجال يتمايلون ذات اليمين وذات الشمال، بعضهم مغمض العينين، منسرح الجبين، بعضهم مكدود، قاماتهم أطول

من قاماتهم، أطول من قامات الماء والشجر، أطراف جلابيبهم تهفهف كأنهم يستعدّون للطيران، يتمايلون مردّدين نغمة واحدة، سوف تتراخى وتشتدّ حسب غناء المنشد ومزاجه، يردّدون: الله حيّ، الله حيّ، كنا نندسّ ونقف إلى جوارهم، ونترجرج مثلهم، نتمايل ونتطوّح ونضحك فيزجرنا الأقرب إلينا ويأمرنا بالتزام الأدب، يأتي شابّ عاري الشعر ويهمس في غضب: ابتعدوا، ابتعدوا، ولكننا نتضامّ ولا نبتعد، الشيخ القريب وهو من أصحاب العمائم، لفّة عمامته خضراء، يأمره برقة: اتركهم، إنهم بركة، ويدخل يده في شقّ جلبابه الذي نسمّيه السيّالة ليخرج بعض التمر، يوزّعه علينا خلسة، أكثر من مرّة رأيت أحد الذاكرين يشمله السكر وتأخذه الجلالة ويفقد السيطرة على نفسه، ويقع على الأرض، ويفرفر مثل الذبيحة عند ذاك يعمد المنشد إلى الإبطاء والتهدئة:

الله أنزلَ نوراً يستضاء به
على فؤاد نبيّ سرّه الله
أتى به روحه من فوق أرقعة
سبعٍ إلى قلبه والسامع الله
فالعين تشهد خلقاً جاء من عدمٍ
في عين كون فأين العبد والله
له اليمينُ له العينان في خبرٍ
أتى به منه والآتي هوالله
ينوب عنّا وإنّا منه في عدم
ونحن نشهده والشاهدالله

ثم يكرّر الكلمتين الأخيرتين، والشاهد الله، والشاهد الله، كأنهما تتهاديان قبل أن تتوقّفا أمام حاجب لا نراه، أبي يقول لنا: إن الحاجب يوقفهما ويسألهما: من أنتما؟ فتجيبان: لسان الله، يعود ويسألهما: من أنتما؟ فتجيبان: وجه الله، يسألهما ثالثة:

من أنتما؟ تجيبان: تأدّب يا حاجب.

أذكر أن أبي كان يعاني ويمنع نفسه عن الذكر، خشية الوصول إلى حالة التجلّي، قالت جدّتي وأمّي وعمّتي فاطمة وعمّتي الخضراء: التجلّي يهدّه ويضعضعه ويحوّله إلى ورقة شجر خضراء تلعب بها الريح، بعد انتهاء الدور الأول من الذكر، ينشقّ باب بيت العمّ داود عن غلمان يحملون أطباقاً عليها طعام ويوزّعونها، المنشد وبطانته وقلّة آخرون يصحبهم العمّ داود إلى الداخل، في الصباح كنّا قد رأينا عجلاً صغيراً يتخبّط في دمائه، ورأينا كيف رشمت بعض الأكفّ الحوائط بالدم، كان أحياناً يعجبني منظر أحد الذاكرين، فأسأل الأولاد: من هذا؟ يقولون: فلان أبو فلان أو أبو فلانة، أو يقولون: لا نعرف، فجأة سألني الولد الذي يجاورني: هل تعرف من هذا؟ وأشار إلى رجل أربعيني، ربعة، وجهه عفّي، مشرّب بالحمرة، هززت رأسي، قال الولد: إنه الحاج بهجت، فرج ابن الحاجّ بهجت أصبح صديقي فيما بعد، كنّا نركب عربته التي هي حمار يجرّ فنطاساً كبيراً مملوءاً بالكيروسين ومرفوعاً على عجلتين، ونمرّ على الدكاكين، ويملأ البراميل المعدّة لذلك، حتى يصبح الفنطاس فارغاً، فنذهب إلى منطقة خلاء مترية إلّا القطاع الطولي المتاخم لترعة كبيرة، لعلها ترعة الإسماعيليّة، ننزل عن العربة، فتطير بعيداً بعض الطيور البريّة الجاثمة، ونسير صامتين، نمرّ على جانب تظهر فيه آثار المشي، حشائشه موطوءة، وعلى حافّة الترعة نجلس وننظر حولنا، رجال وفتيان، في أيدي بعضهم صنّارات مصنوعة من البوص وممتدة بموازاة سطح الماء، فرج لا يحبّ أن يفتح فمه كثيراً، ولا يحبّ نهائياً الكلام عن أبيه، كأنه ممنوع من ذلك، في سنّ الرشد، حكى لي أبي أن الحاج بهجت، كان مناضلاً، ترقّى حتى أصبح أحد قادة التنظيم العسكري للإخوان المسلمين، وسجن وعذّب لفترات طويلة على مرّ سنوات الستّينيّات، لم استطع أن أرفع الغطاء عن مشاعر أبي تجاه الإخوان، لم يكن يذكر الشيخ حسن البنّا إلّا نادراً وكان يتندّر أحياناً على الشيخ الباقورى وهو إخواني منشق، ويقول عنه: الشيخ الذي سمح للمرأة أن

تصلّي بالمايوه على البلاج، كان لا بدّ لي أن أكاشف فرج بما في نفسي، وقد فعلت، لكنه لم يجب بشيء سوى نظرة لانهائيّة إلى الفضاء، منذ البداية لم يكن الحاجّ بهجت في قائمة أبطالي، منذ البداية لم أحلم به، وها أنذا أعود وأحلم أحلامي القديمة.

أذكر كأنني أحلم أنني قرأت أنه في نوفمبر سنة ١٩٥٨ أنشأ شعب يوليو ١٩٥٢ أوّل وزارة للثقافة في مصر، وفي ١٩٥٩ فكّروا في إقامة القصور الثقافية، أوائل الستّينيّات كنت أوشك أن أنهي دراستي الابتدائيّة، ذات خميس، كل الأشياء تقترب من الحدوث يوم الخميس وتستريح يوم الجمعة، ذات خميس فوجئنا بعد الغروب بسيّارة كبيرة من نوع غير مألوف، مجهّزة بآلات عرض سينمائي، وعليها عمّال مؤهّلون لتشغيل هذه الآلات، وفي مقدّمتهم الولد عزّوز الذي أراد أن يتباهى بنفوذه، وسواء وافقته على زهوه، أو لم توافقه، فإنك في الحالتين لا تستطيع إلّا أن تقدّر جهوده، وأن تقرّ له بالفضل، في مكان فسيح يحدّه الجدار الخلفي لأحد المنازل، ازدحمنا نحن الكبار والصغار لمشاهدة الفيلم، كنا نعطي ظهورنا لبيت العمّ داود، الذي ستصبح منذ هذه اللحظة حظوظه بائسة، كنا نتعثّر كأننا نخلع نعالنا ونعدو حفاة في اتّجاه بستان لا نعرفه، في خميس كل أسبوع، ننتظر عزّوز وسيارته، أنا الآن طالب بالمدرسة الإعدادية بكوبري القبّة، ألبس البنطلونات الطويلة فقط، والقمصان البيضاء، والحذاء الأسود، المدرسة على الجانب الآخر من شريط القطار، وقصر القبّة على الجانب الأوّل، كنت عندما أبلغ باب المدرسة أقف وأقرأ من جديد اللافتة النحاسيّة الصفراء، مدرسة أبي بكر الصديق الإعداديّة للبنين، وكنت أحبّ أن أتخيّل أن الاسم ليس مستعاراً، أنه حقيقي، وأن أبا بكر سوف يبعث من موته، ويدخل علينا الفصل، ويقول لنا: لا تقفوا، لا أحبّ من يقف لي، ويدرّس لنا التاريخ الذي رواه له الرواة، والتاريخ الذي عاشه، ويسألنا عن تواريخنا ويعتذر عن أخطائه مع فاطمة وعليّ، ويخفض رأسه، ناظر المدرسة يستمدّ هيبته من جسمه المقوّس الكتفين، ووجهه الجهم الصارم، واسمه المهيب،

الأستاذ عبد الرحيم المهندس، ومن وزارة أخيه، كان عبد العظيم محمّد هو الذي يعلّمنا الموسيقى، وكنّا ننشد في طابور الصباح النشيد الذي لحّنه، هيّا أبا بكر لقد آن الأوان، على مقاعد محطّة كوبري القبّة، وهي الأقرب إلى المدرسة، كنّا إذا انتهى اليوم الدراسي، نذهب أنا ويونس، ونجلس على أحدها، ويستعين يونس بذاكرته ومحفوظاته، وكان مؤمناً بنفسه واثقاً بقدراته، يعرف أهمّيّة الكلمات، ولكنه لا يعرف كيف تصبح ساحرة، لا أستطيع الآن أن أتصوّره يكتب نصّاً طويلاً حتى عن حرب، حتى عن حياته، لأن همّه لم يكن الكتابة، كان همّه أداء الواجبات، يمتلك المعنى الحقّ للحدود الإنسانية، يمتلك محبّته الاستثنائيّة للآخرين، يونس يدمدم ويكتب في كرّاستي موضوعات الإنشاء المطلوبة منّي، وأنا إلى جواره أراقب العابرين والعابرات، وفي البيت كانت أختي تؤدّي عنّي واجبات الرسم، وأنا إلى جوارها أراقب جمالها، لم أكن عالة، ولكنني أهرب من أداء ما يكلّفني به أحد، في الفصل يستحثّنا الأستاذ عبد الساتر على عشق اللغة العربيّة، وعلى المحبّة عموماً، كان يقول لنا، كأنه رسول: من يسرق زميله لصّ صغير، لصّ مذنب في حقّ شخص واحد، ومن يسرق مكتبة المدرسة لصّ كبير، مذنب في حق الجماعة، سامحوا اللصوص الصغار، ولا تسامحوا الكبار، ذات مرّة: أوقفني الأستاذ عبد الساتر وقال لي: اقرأ، فقرأت، قال لي: كفى، فكففت، قال: مالك يا بنيّ، تقرأ كأنك قطار قشاش مقطوع النفس، يقف في كل المحطات، خجلت، ولم أرفع رأسي، كان عادل فيليب يجلس إلى جواري، عندما لمحته ينظر إلى وجهي خجلت أكثر، كتفا عادل نظيفتان مستويتان لم تحملا بعضاً من عبء السنين بعد، خدّاه أملسان، يكتفي دائماً بما لا يتعسّر فهمه، ويستغني عمّا لا خسارة في الجهل به، وكي لا يستسلم، كان عادل يمصّ إبهامه إذا استعصى عليه أمر، عندما أحببت طاغور وغاندي لم أكن أعلم أنني أستعيد فيهما صورة الأستاذ عبد الساتر، وعندما أحببت جبران كنت أستنشق أنفاس عادل، لا يولد الإنسان ثائراً أو شاعراً، نحن من نفعل هذا، في البيت وبعد

أن أعود من المدرسة لا أهدا إلّا إذا رأيت هانم ذات الأصابع الستّة في كل قدم، خاصّة أنهم حجبوها، ما زلت أذكر أيّام كنّا نلعب اللعبة ذاتها التي لعبها بالتأكيد جدّي أحمد وجدّتي عائشة، حيث ننام متجاورين كعروسين، ونتلامس، ونصحو بعد قليل، فإذا شرعت أتجهّز للذهاب إلى العمل، حرصت هانم على أن تساعدني، وتدعو لي بالسلامة، لم تكن تشبّ وتقف على أصابع قدميها وتقبّلني، لا في فمي ولا في خدّي، فنحن لم نشاهد آباءنا وأمّهاتنا يفعلون ذلك، أخمّن أنهم لا يفعلونه في السرّ، كانت هانم تخفض رأسها، وتخفي عينيها، وتهمس بما لا أسمعه، وكنت لا أمثّل دور الغيور عليها، كنت أغار فعلاً، فهي تحبّ أن يشاركنا عبد الغني اللعب، فألاحقه بنظرات خالية من الفهم، وإعياء شديد يملأ روحي بالفتور، سرعان ما أحاول أن أداريه، كنت أتوقّع أن ينبعث من جسدها صوت شروق الشمس إذا راقبتها عينا غريب، في ليل كل خميس، ظلّ عزّوز يأتي ومعه تأتي عربة السينما، فنتزاحم، كنت قد اكتشفت بلوغي عبر ملذّات تنتابني في أثناء النوم، ويعقبها ذلك البلل الذي يلوّث ملابسي الداخليّة، وكنت أيضاً قد اكتشفت مصادفة وأنا أستحمّ، مباهج أن أدلّك براحة يدي اليمنى ذلك العضو الصغير، ثم أتأمّله يطول وينتفخ ويمتدّ ويرتفع إلى أعلى ويبلغ أقصى اشتداد له، ثم يدفق ماء لزجاً أقرب إلى البياض، أقرب إلى زلال البيض النيء، واحتفظت بسرّي وخشيت عليه من الذيوع، حتى سمعت حواراً بين طالبين: أما تزال تفعلها؟... نعم، لم أستطع التوقّف... إنها تضر البصر... لا أستطيع... كيف تفعلها... براحة يدي المبلولة بالماء والصابون... احذر، لقد ضبطتني أمّي أمس... عندها عرفت أنها ليست سراً، فاحتفظت بسرّي الآخر، أنني سأعيش أطول وأضحك أكثر، ربّما لن أمتلك القوّة على العراك بالأيدي، ولكنني سأمتلك القوّة على الحروب الأخرى، لن تنتهي حياتي بالخرف والعجز، سوف أظلّ أعمل على تعزيز كفاءتي، هذا السرّ لم يكتشفه أحد، فيما اكتشفت أمّي وأختي آثار سرّي الأوّل، كانت أمّي قد بدأت تنصحني ألاّ أظل كثيراً

بمفردي، أو بلا عمل يشغلني، ومنعت أختي من غسل ملابسي الداخلية، لم يكن لي مرشد يدلّني على ما يحدث، ذات مرّة خجلت من هانم وخجلت من نفسي لأن هانم تختلس النظر إلى الجزء المنفوخ من ثيابي، وتضحك رغماً عنها، وذات مرّة نمت بجوار أختي فأيقظتني بعنف ودفعتني بعيداً، وأدارت وجهي جهة الحائط، ولمّا صحوت مسحت على شعري واحتضنتني، أحببت الله ولكنني لم أتعلّم من حبّي له أيّ شيء على الإطلاق، وحتى الآن لا أظنّني قادراً على عدم محبّته، ومهما بدا ذلك غريباً فإني لست قادراً على الاعتراف بأني أميل إلى الوفاق مع فكرة وجوده، وما أفتقده اليوم من جمال العالم وأبّهته، ليس لأن الله غير موجود، ولكن لأن الإنسان يوشك أن يصبح شيئاً آخر، يوشك أن يصبح غير موجود، أمام عربة السينما، ومنذ حوالى أربعين سنة حيث كنت واقفاً في ذهول اندماجي مع أبطال الفيلم الذي أراه، الأصحّ مع إحدى بطلاته، هل كانت زوزو ماضي أيام شبابها، هل كانت كاميليا، هل شويكار، من أيّاً كانت لقد أحسست أنها تقف أمامي، وأن جسدينا ساخنان ومنصهران، وأن عزائي الحقّ أن أبلغ معها ذروتي وأفيض عليها بمائي، كان صوتها آنذاك يخالف ما اعتدته من أصوات النساء لم تكن الغنّة الساحرة والضحكة الخليعة، لم تكن نبرات الصوت وما فيها من فحش وتهتّك، هي ما جعل حلقي يلتهب، بل إن حفيف ثوبها وحركاتها العادية والتي ألحسها قطرة قطرة، حتى زاد ألمي، فالتصقت بها أكثر، لم أبتعد عنها، ولم أبعدها عني، رغم أنها حاولت وتململت واهتزت ودفعتني بكوعيها، لكنني لم أفلتها إلّا بعد أن هدأت وابتلّت ملابسي وتلوّثت كالعادة، كانت يدي تتشبّث بكتفها، عندما ارتحت اكتشفت أن يدي تتشبث بالولد الذي ظهره لي، ساعدني الظلام، وساعدتني زوزو ماضي أو كاميليا أو شويكار على النسيان، وساعدني الولد نفسه، لم يرفع صوته، ولم يسمح لعيوني أن تطلّ على عيونه، كان أهله دائمي التدليل له، فهو ولدهم الوحيد وسط بنات، ينادونه: يا ميمي، لم أعرف اسمه الأصلي قطّ، حتى بعد أن مات، في ذلك اليوم،

طفرت الدموع الساخنة من عيوننا، وأخذ الكبار يردّدون: لا حول ولا قوّة إلّا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، كان وجه أمّه يختلط فيه الإعياء بالضعف بالتجهّم بالصراخ، وأخواته يلطمنَ، ففي ذات ليلة، وبعد أن فرغت معظم الأسر من العشاء، وذهب الرجال والنساء إلى دورات المياه وتجشّأوا واغتسلوا، ثم تمدّدوا في أسرّتهم، سمعنا صراخاً، تخيّلنا صاحبته مهملة الثياب والشعر، ولمّا رأيناها كانت كذلك، إنها أمّ ميمي، علمت من الطارق نبأ وفاة ابنها، لقد غدر البحر به، ولم يستطع أصحابه إنقاذه، كان الوحيد بيننا الذي ينادي أمّه: يا نينا، والوحيد الذي تناديه أمّه: يا ميمي، إنه الموت، هذا هو الجنس البشري المهزوم دائماً بالوصول إليه، والمصاب بالوعي به، مهما يكن، فهو يقبع دائماً في ركن ما، ثم ينقضّ حيث لا حاجة إلى الدهشة، حيث عصاه عذراء في كل مرّة، عندما سقط بمديته على أخي سعيد، كان يصغرني، وكنّا في موسم انتخابات، ومواكب المرشّحين تطوف بالشوارع، قافلتان إحداهما تهتف للحنّاوي والأخرى تهتف للمستكاوي، وسقف البيت بلا صور، وفي اللحظة التي اقتربت فيها من سعيد لأجلس إلى جانبه، كان يندفع ليرى قافلة تتوارى، فارتطم بالأرض، إنه الموت، جثّة على رصيف، ودموع ومناديل، وأمّهات وأخوات تسودّ وجوههنّ، اسودّ وجه أمّي، وذابت رموشها من البكاء، وسافرت هي وأبي، ولما عادت كان وجهها قد اسودّ أكثر، ورموشها ذابت أكثر، وجذعها التوى، نصحنا أبي أن نخفض أصواتنا، نصحنا ألا نضحك، ولم يزد، وأطعناه، وأصبحنا كالآذان الجافة، نتلصّص، وإذااقتربنا من أمّي سمعناها تكلّم نفسها: عملتها يا عبد العليم، الله يسامحك، وكان المعزّون والمعزّيات، وكانت أحاديث كثيرة فهمنا منها أن خالي أحبّ إحدى جاراته، وأن أباه وزوجة أبيه لم يوافقا على زواجه منها، فأشعل النار في جسمه، واحترق مثل عود خشب، كان إذا زارنا خالي وأجلسنا حوله، لا أكفّ عن النظر إليه خاصّة تفّاحة آدم البارزة كأنها ستفرّ من عنقه، كنت أتأمّل طوله الفارع، كيف ينثني، كيف ينحني، كيف يجلس

على الأرض، فنجلس مثله، ويبدأ في الغناء، يداه تدقّان على الطبليّة، وأغنياته نشوانة فرحة بينما أمّي تحتال لإسكاته حتى تستطيع أن تضع الطعام الذي تحمله، وهو يعاندها ويستمرّ، ثم يقوم فجأة ويتناول الطعام ويرصّه على الطبليّة ويشدّها من يديها: اجلسي إلى جانبي يا فاطمة، اجلسي يا فاطمة، وهي تتمنّع وتمانع: كلوا أنتم، فيقسم: والله لن آكل إلاّ معك، ويدّعي الغضب، ويضع راحة يده على فخذه كأنه يهمّ بالنهوض، فتعاجله: طيّب يا عبد العليم طيّب، إنه الموت، وجثّة ميمي الغارقة مخبوءة داخل السيّارة السوداء، وذكرى زوزو ماضي أو شويكار لا تفارقني، وأصابعي تلهث حول فمي، إنني الآن ضحيّته، وهو ضحيّة زوزو ماضي، في السينما لا يمكن أن ترمز لجمهورك بالتفّاحة إلا عن طريق تصوير تفّاحة حقيقية، هكذا يقول رجال السينما، وفي الحياة لا يمكن أن ترمز لنفسك بالموت إلّا عن طريق جثة على الرصيف، أو جثّة محترقة، أو جثّة غارقة، إلّا عن طريق الموت ذاته، هكذا تحافظ السينما على استمرار سلطتها وسحرها، وهكذا أيضاً تحافظ الحياة، فالسينما فنّ الإيهام بالواقع، والحياة فنّ الإيهام بالخيال، وزوزو ماضي أو كاميليا أو شويكار تقف في أوّل طريق جديد من النضال يجب الشروع به، كيف تواجه الموت، بالحفاظ على حريّتك، وعدم القيام إلّا بما يروق لك، وما أسلحتك؟ الخيال، ثم الخيال، وأين تجده؟ ما أجده الآن في السينما، وأنا في المدرسة الإعداديّة جاورت عادل فيليب نصف النهار، وطاردت شبح هانم في نصفه الآخر، وفي الليل تعلّمت أن أشرع في عمل يحمل الطابع الأساس لما أريد أن أكونه، كان هذا العمل يرتكز على الماضي، وكأنني لا أهتمّ بالمستقبل، تعلّمت أن أشرع في إعداد دائرة معارف كنت أقلّد في صناعتها دائرة معارف الشعب، ومساء كل خميس أذهب إلى سينما هونولولو، كانت عربة عزّوز قد توقّفت بعد أن دلّتنا على كائناتها البرّاقة والتي لا تموت أبداً، التي إذا ماتت تُبعث من جديد، في الطريق إلى السينما كنّا نمرّ على الدار الكبيرة، التي سيسكنها فيما بعد الملك إدريس السنوسي ملك ليبيا المخلوع،

ونتوقّف حول أسوارها، نحلم أن نتسلّقها ولا نفعل، كانت هونولولو دارين في دار واحدة، دار للعرض الشتوي، وأخرى مكشوفة للعرض الصيفي، وأيّاً كانت الدار كان البروجرام الواحد ثلاثة أفلام، كلها ليست عرضاً أول، فيلمان مصريّان، والثالث أمريكاني، والعرض مستمرّ، وستيف ماكوين وجاري كوبر يجريان على ألسنتنا مجرى فريد شوقي ورشدي أباظة، والجريد برجمان هاجس لا يختلف عن هاجس سعاد حسني، في الليلة التي شاهدنا فيها (شيء من الخوف) لحسين كمال ومحمود مرسي وشادية وثروت أباظة، عدنا بعد منتصف الليل، نتخبّط في الطرقات، ونهتف مبهورين بلا وعي، زواج عتريس من فؤادة باطل، كأننا نهتف بسقوط إمبراطور يسكننا ولا نعرفه، ولما أفقنا اخترنا أن نلعب، كأن نقف إلى جوار بعض الشبابيك الأرضية المغلقة والمطفأة الأنوار، ونصرخ بصوت مسعور: زواج عتريس من فؤادة باطل، ثم نجري مسرعين إذا أضاءت الأنوار، كنّا أحياناً نسمع أثناء جرينا ضجيج فتح النوافذ، أو استغاثات أو يا أولاد الكلب، فتزداد نشوتنا، كنا نتخيّل دون أن نبوح أو نصرخ صورة مركّبة للأزواج فوق زوجاتهم، هم يلهثون ويجأرون وهنّ يتأوهنَ ويشهقنَ، فنتحمّس أكثر، ذات ليلة وقرب الفجر، صرخت الستّ أمّ عربي: الحقوني، حرامي، حرامي، وقفز رجل من شبّاكها واختفى، بالضبط وقت كان زوجها يفتح الباب، عائداً من سهرته، واختنقنا بالظنون، لعل أبا عربي اختنق بالظنون مثلنا، بعد زمن قليل، وفي أحد الأفراح، ومثلما فعل فيما بعد الشيخ حسني في فيلم الكيت كات، شرب أبو عربي خليطاً من كؤوس البيرة وغيرها، ودخّن سجائر الحشيش، فسكر وانسطل، وفقد السيطرة على نفسه، وقام يترنّح وخطف الميكروفون من صبي الراقصة الذي يصاحبها على المسرح، وأخذ يصيح: بحبك يا أمّ فتحي، أمّ فتحي هي أمّ هانم ذات الأصابع الستّة في كل قدم، بحبّك يا أمّ فتحي، هل تعرفون فلانة إنها تذهب إلى بيوت الطلبة في روكسي، وفلان ينام مع زوجة أخيه، بحبّك يا أمّ فتحي، لم يستطع أحد أن يمنعه من سرده للفضائح، في اليوم

التالي، اعتصم جميع الرجال، واعتصمت النسوة بالوجوم والصمت، كان محمود بيصار الذي يُكنّى بأبي عربي، يحاول الانتصار على شكوكه في زوجته، فجعل الجميع يشّكون في زوجاتهم، سمعها في تلك الليلة تصرخ: حرامي حرامي، وأسرع يسعفها فرآها تجتهد في إخفاء عريها، لما تزوّجت أختي وانتقلت لتعيش مع زوجها في أحد بيوت السيّدة زينب، كنت قد اختتمت دراستي الإعداديّة، بيت أختي مبنى أثري منذ القاهرة المملوكيّة، باحته واسعة ومكشوفة للعراء، ودورات مياهه عامة للسكّان جميعاً، وأختي غير راضية، تعبت من المشاعيّة، فادّعت المرض وجاءتنا تستشفي، حكت عن الأشباح التي تخيفها في الليل، حكت عن الرجال السود الذين يظهرون في الأركان، ويختفون في الأركان المقابلة، حكت عن نساء تولول طوال الليل، وعن أصوات ملتاعة تبتهل: أرجوك لا تذبحني، ورجت أبي ألّا يسمح لها بالعودة، فأخلى مكاناً في بيتنا، وشاور زوجها على أن يسكناه، وبعد استعصاء قليل وافق الزوج، وعادت أختي إلينا مرّة ثانية كأنها لم تتركنا قط، وعاد الشبّان يمرون أمام بيتنا، وأسدلت أختي على شبّاكها ستارة، ووضعت في ثقب بابها مفتاحاً من الداخل، ولم تعد تكتفي بالأكرة، ولكن آه ليست المسألة هيّنة إلى هذا الحدّ، ولا بدّ أن نتدبّر في أحسن الطرق للوصول إلى النسيان، كان أبي وأمّي يدخلان حجرتهما ويغلقانها في بعض الليالي، كانت أختي وزوجها يغلقانها كل ليلة، أما جدّتي فكانت تنسحب وتسحبني من يدها، النوافذ والأبواب، الستائر والأكر والمفاتيح، كلها أصبحت هامّة وذات شخصية، ذات صباح دخلت علينا أختي مخطوفة الوجه، باكية، وأبلغتنا في لهْفة واضطراب أنّ كل ملابسها وحليها قد سُرقت، وأن دولابها مفتوح، وذكرت أنها انتظرت زوجها ولمّا تأخّر غلبها النوم دون أن تغلق شبّاكها المطلّ على الشارع، كانت أختي تحلم ببيت كبير له حديقة، وكانت ساقاها القويّتان وخصرها الضامر وشفتاها، كان جسمها كله يستجيب لشيء ما طرأ عليه ويزداد جمالاً بولاداتها المتعدّدة، ابنتها الأخيرة ولدتها بين يديّ

فأسميتها هند، في أمستردام اكتشفت أنني أتعثّر مثل أعمى أو سكران، رباط حذائي دائماً مفكوك، لا آكل ملء فمي، لا أنتهك عزلة أحد، في بهو الفندق، وهو بهو صغير، جلست فتاة شابّة على طاولة قريبة، أطلت النظر إليها، فالتفتت ناحيتي، وبادلتني النظر، كأن شبه ابتسامة أو شبه دعوة تتحرّك في ماء عينيها، ولكنني استمررت في النظر، ورأيت أختي على الطاولة ذاتها، الفتاة الشابّة أحدثت حركة بيديها، كأنها أشاحت، كأنها اعتقدت أنني مريض بالرومانسيّة، وأنا كذلك أحياناً، ظللت أتعثّر مثل أعمى أو سكران، ظلّ رباط حذائي مفكوكاً دائماً، كنت أشتري كتالوجات الفنّ التشكيلي، وأوثر التعبيريّة والتأثيريّة، وكانت هالة من السرّ تنفذ إليّ وتلفّني وأنا أحاول أن أفهم نفسي وأتعاطف معها، كنت أحسّ أنني لست متأكّداً من اللحظة التي سأفعل فيها كل ما هو غير متوقّع منّي، وجدتني أبحث عمّا يثيرني ويدهشني، في أمستردام ليست القراءة هي ما أحتاج، لا يمكن أن أكون شخصاً آخر، ولا يمكن لشخص آخر أن يكون أنا، أنا لا أحبّ لعب الطاولة أو الكوتشينة أو الدومينو أو الشطرنج، لعبت كرة القدم ولم أبرز فيها، لا أحبّ حلّ الألغاز، ولا أميل إلى تدخين الحشيش، وأكره شرب القهوة وإن أحببت رائحة البنّ، في أمستردام اكتشفت أنني أحبّ أختي، وأحبّ مجلات الليزبيان وأحبّ السينما، في سينما هونولولو، جرّبت كيف أقبّل الفتاة لأوّل مرة، كان أمراً غريباً حقاً أن أقابل توتو في الطريق، عندما رأتني وقفت تتطلّع حولها وهي مترّددة، كأن الزمن نفسه قد تجمّد في نسق ثابت للحظة عابرة، لم تكن في هذه اللحظة أسعد منها في أيّة لحظة مرّت عليها في حياتها، سوّت ثنيّات فستانها بعصبية وهي تدري أن ما تفعله غير ملائم، وسحبت يدها من يد الفتى الذي يماشيها، حتى الموت طيّب وطبيعي لأنه نهاية الحياة، ولأنه جزء من أسلوبها المتكرّر، أمّا أن تقف توتو أمامي هكذا، مثل زجاجة مفتوحة يسيل ماؤها على الأرض، فهذا هو الأمر الشاقّ، قبل أن أصعد سلّم منزلنا كان الفتى صاحبها قد لحق بي ونـاداني، قال لي: توتو خائفة، قلت: منّي؟ قال:

تخشى أن تفشي سرّها، قلت له: اطمئنّا، وأنا أصعد السلّم، رأيت توتو وكأنها تسبقني، حملقت في ظهرها، اشتهيتها، بشرتها سمراء، وجسمها طري متماسك، فانجذبت لما يمكن أن تجذبني إليه أعماقي السحيقة، من الغريب أن ردّ فعلي الأوّل كان التعالي والنفور، لقد توقّعت أن أنساها، أن أركلهما معاً بتعمّد أكيد ليصبحا هي وهو بعيدين عنّي، لكن أملي في نفسي خاب، كان المكان الذي يمكن أن أجد فيه توتو هو دكّان أبيها الذي تجلس فيه صباحاً بمفردها، عندما بلغت باب الدكّان كانت مثل فتاة لم تطق الجلوس ففضّلت أن تقف، لمّا رأتني اختلج أنفها، ثم شعرت بثقة شديدة في أنها تحتفظ بمكانها العالي فوق الأرض، وهي لا تريد أن تقتنع تماماً بذلك إلّا بعد تجربة، قالت لي فيما بعد أنها كثيراً ما كانت تستحضر في ذهنها صورة فتاة تمسك بيد فتاها وتسمح له أن يشدّها إلى صدره، فإذا دوّختها قوّته ورائحته تسمح له أن يطير فوقها، هي دائماً تحلم بالطيران فوق العشّ، كانت تقول ذلك وهي شاعرة شعوراً غامضاً أن سبب ما تفكّر فيه يكمن فيما هو أبعد، ربما في حنانها المتسارع الخطوات، وقد يكون السبب أعمق من ذلك أيضاً، كأن يكون متأصّلاً في نار جسدها التي لا تنطفئ لأنها لم تتعرّف بعد على من يطفئها، كانت عينا توتو مائلتين بسبب الحاجة الدائمة إلى الدفاع عن الذات، وموارباتين بسبب الظاهر والباطن، وشعرها كأنه حقل حرير أسود، مقسوم من الوسط، وأنفها مستقيم، لم تكن تعرف أدوات الزينة، راقني كثيراً أن اصحب توتو إلى سينما هونولولو، في الطريق قلت لها: سمعت أنك مخطوبة لقريب من الريف، فبدا الاشمئزاز على وجهها، قالت توتو: إنه أمر رديء فعلاً لكننا أنا وأنت سنتدبّر الأمر، لا بدّ بعد أن أتزوّج أن نتدبّر الأمر، هل يعجبك أن أنالك وتنالني بعد الزواج، في دنيا الحبّ كل شيء ممكن، ونستطيع أن نحلّ كل أحاجي الكون إذا وضعناها تحت أصابع توتو، وما تقوله توتو أكثر معقولية وأقلّ جنوناً من جنون العالم، في السينما، وبغموض في أول الأمر، اتضّح لنا أننا جلسنا في المكان الخاطئ،

حولنا البسطاء والفضوليّون وصغار السنّ، الذين يلتفتون حولهم أكثر ممّا ينظرون إلى الشاشة، وفي مشهد مظلم من الفيلم انحنيت على فم توتو، واستسلمت لي بخبرة أضفت عليها مظهر الفجور البريء إلى حدّ ما، ولأننا كنا نفتقر إلى ضبط النفس ارتعشنا بشدّة عندما فوجئنا بمشهد مضيء، فانكشفنا أمام العيون،التي ظلّت تراقبنا، كل رواد السينما صفّقوا لنا، والبعض أطلق الصفير، قبلتنا الطويلة بدت لهم وكأنها آخر سلسلة دناءات صغيرة، وبالرغم من أن توتو أصغر منّي، إلا أنها كانت الأكثر حكمة وتعقّلاً، همست لي أن نخرج، ونبدّل تذكرتينا من الصالة إلى البلكون، لكن موظف الشبّاك رفض واقترح علينا شراء تذاكر جديدة، ولو لم تكن توتو هي توتو، وأنا هو أنا، لاشترينا تذكرتين وكررنا المحاولة، عدنا ونحن نتمنّى الهروب إلى مكان آخر، وعرفنا أنه لا يوجد الآن مكان آخر سوى البلكون، فتسلّلنا إليه مستندين إلى أعمدة الظلام، كان جمال توتو وجمال المحاولة يمتزجان فتغمر الفرحة والنشوة جسمينا إلى درجة أن تغرورق عيوننا بالدموع في أثناء التصاق شفاهنا، وقبل أن نفيق كان عامل الكشّاف الذي تبعنا يصوّب نور كشّافه إلى وجهينا، أصبحنا عاجزين عن عمل أي شيء، عاجزين عن استكمال نشوتنا، ففزعنا وانصرفنا إلى الخارج، الحقيقة كانت توتو أقلّ فزعاً، كانت تشبه من تدرّب على هذا الرعب، خرجنا ونحن لا نعرف أين سنذهب، وقنعنا بالمشي مثل محكومين بالمتاهة، لقد شرعت توتو في رسم خطط للمستقبل فور خروجنا، بينما كنت أتجهّز لفقدانها، فيما بعد ومع كل امرأة فيما عدا واحدة، سأفعل الأمر ذاته، سأتجهّز لفقدانها، حتى مع حكمت حيث كان من الممكن أن يتمكّن شخصان اثنان من حبّ أحدهما الآخر بإخلاص تامّ وحميميّة متساوية دون أن يختبر الواحد قوّة حبّ الآخر، دون أن يفكّر في مراجعته أو مساءلته أو مراهنته، كانت حكمت قد هبطت عليّ من الأدوار العليا، كنت أجلس على كرسيّ أصنعه أمام البيت، وأتعمّد أن أمسك كتاباً سميكاً، وإذا مرّ سرب تائه من العصافير جعلت نظرتي تتبعه، وترتفع معه لتصل إلى

بلكونة حكمت في الطابق الخامس، فيتّحد خجلي واحمرار وجهي وجمالها وزقزقة العصافير في تيّار خفي، يهدأ إذا هزّت رأسها واستدارت بسرعة، كنت أيّامها مفتوناً برسوم حلمي التوني لروايات إحسان عبد القدوس، ومفتوناً بروايات إحسان عبد القدوس على رسوم التوني، كان وجه حكمت رطباً وجوّانياً، كان يشبه وجه ميرفت أمين، عندما علّقت على جدار غرفتي صورة ميرفت أمين، كنت أظنّ أنها حكمت، لا تزال تفاصيل ذلك اليوم الذي ارتدت فيه فستاناً من الموسلين وأطلقت شعرها وصعدت إلى الباص، وظلّت طيلة فترة جلوسها على مقعد بجوار النافذة تحسّ بوجودي إلى جوارها، وبأنني لم أبعد عيني عنها قطّ، ومع ذلك لم تلتفت ناحيتي، أظن أنّها أحسّت كم هي جميلة أكثر ممّا كانت في أيّة لحظة سابقة، بدليل أن وجهها أشرق إشراقته القصوى، ولما نزلت من الباص، وتبعتها، توقّفت وسألتني: لماذا تتبعني؟ أطرقت قليلاً ثم نظرت في عينيها، ملامحها تدلّ على أن نفسها امتلأت برغبة عارمة في أن أنطق، وانتظرت، ثم قالت تستعجلني: على فكرة، زكريّا أخذ باله، وزكريّا هو زوج أختها، كنت أريد أن أقلّدها كالببغاء، ترهّلت جميع أسلاك جسمي، جميع أعصابي، وازداد عجبي حين لم أجد أي أثر للندم، فأخذت أعتذر، بلغت باعتذاراتي الجزء الأسفل من أحشائي لم أتعمّد أن أفهم ظاهر كلامها على النحو الذي فهمته، كنت أفهمه هكذا فعلاً، إلى حدّ أنها نظرت إلى وجهي وفمي وكأنني شخص ممسوخ، شخص قلبه مملوء بأطياف فارغة، إنني إنسان وحيد، ذكر يبحث عن أنثاه، يبحث دائماً عن أنثاه، ويخطئ في الطريقة والفهم، ويبحث بعد ذلك عن مخبأ لا يهمّ إذا كان صغيراً، لا يهمّ إذا كان أصغر من قطعة ريح، الحلم محض سراب والأرض الجرداء محض ألم، وما قبل الحدود هذيان مستمرّ، وما وراءها هذيان بطعم آخر، لو كان بإمكاني أن أصبح خفيفاً، ومشعاً، وصافياً، وعمري أقصر من عمر فراشة، لو كان بإمكاني أن أصبح ثقيلاً، وأنانياً، وطاغياً، وعمري أطول من عمر ديناصور، إنني موجود هنا، إنني غير موجود هنا،

في أوائل الثمانينيّات كنت أحوّل نفسي إلى جرح وأضمّد الجرح بأشعار المحدثين أدونيس وأنسي وأبو شقرا وآخرين، ثم أعمّده بأشعارهم أيضاً، وأيّام حكمت ضمّدت جرحي بآثار من كانوا السبب، إحسان عبدالقدوس وحلمي التوني، وعندما وجدت ناهد أصبحت أحوّل نفسي إلى جرحين، ذهبنا معاً تحت أجنحة النهار، إلى عملي، وإلى غرفتي، وإلى المقاهي، وإلى الشوارع، لم يكن أحدنا يريد لخضوعه أن يزيد، كانت محشوّة بعقائدها، وكنت نقطة في طريقها، أوقفتني في ميدان التحرير مثلما يمكن أن تفعل امرأة صوفيّة نهمة وأمرتني: قبّلني، قلت: يا ناهد، أمرتني: قبّلني يا جبان، دون أيّة كلمة سوداء، دون أقلّ تفصيل، ومثل جبان حقيقي قبّلتها، الهزيمة هي ما ينتظرني دائماً، حتى عندما ندخل السينما في نهار شهر رمضان، كنا ننجرف بعيداً، كنا نطمع أن نسترجع أحلامنا المغتصبة، قبلاتنا أشبه بغمامات نقودها ونحكمها: إلى الأمام، إلى الأمام، كانت هي الأمّية النزقة، وكنت أنا الكاهن المحمول على ساقين بينهما عضو ينتصب ويلمع، أو ينخفض وينطفئ، لمستها مرّة فنهرتني: كيف تفعل قبل أن أسمح لك بذلك، هي مرعوبة تريد أن تقتل الرعب، وأنا مرعوب أخشى أن يقتلني الرعب، حين افترقنا نهائياً سمعت صوتي فقط يناديها، يا ناهد، واكتشفت أنه صوت غير مسموع، صوت صامت، ورأيت ظهرها يبتعد، في الكلّيّة، في السنة الثالثة، كنت أتوه داخل البهو الواسع بسبب الخوف من كل شيء، من الحرية والله والدين والدنيا والميتافيزيقا والوجود والعدم وسارتر والعقّاد وسيمون وكامي والمازني وماجدة شعراوي التي أصابها الملل وتوقّفت عن دعوتي لأن أكون معهم، قلت لنفسي بالفم الملآن: لن أكون معهم، وقلت بالفم المتحذلق: استقلالي أهمّ، أعترف أنني كنت أخاف من ماجدة وزملائها ومن السجن وأرضه وسقفه وجلّاديه وطعامه، وأخاف الموت، وأخاف غياب أبي وأمّي، وغياب أختي، واخاف تقلّباتي، كانت ماجدة سلطانة من بخارى أو سمرقند تخرج من منزلها بعزم أكيد على تغيير العالم، واكتساب

الأنصار، أيّ مصير اختارته ماجدة لنفسها، قوّتها لا يمكن أن تختزل، لكن العالم المحيط بها لم يصبر على قوّتها، هاجمها كالجواميس السوداء، فماتت في آخر مشوارها بالأمراض التي تركتها أقدام الجواميس داخل جسمها، لو كانت عاهرة لما استطعت نسيانها، لكنها المثال الضائع، لذا سأنساها، أصرّ أن أنساها. في الكلّيّة، في السنة الثالثة، ظهرت مها، كانت الحكايات المتوحّشة تحيطني من كل جانب، وهي عنيدة ومصرّة أن تساعدني وأن تكنسها معي بيديها ورجليها وحجابها، وإذا فشلت تدفعني لأبتعد، فنذهب إلى مكان ما على الطريق لتقديم شراب لها، وهناك تتكلّم من منتصف فمها الصغير، هي لا تزعم أن الحياة مهزلة، أنا الذي يزعم، لا تستخدم كلمات السباب، وأنا أيضاً لا أستخدمها، ولكن إذا ذكرت أباها، قالت بإيمان عميق: ليتني مثله، كان يحبّ اللغة ويصون التراث ويحقّقه، انضمّ إلى حدتو، منظمة هنري كورييل، كان يحبّ هنري كورييل، ظلّ عضواً حتى بعد أن سجن، عناده لم يمكن إصلاحه، انفصل عن أمّي، وعرف امرأة أخرى، ثم تنظر في راحتيها وتدندن قليلاً، وفجأة تسحبني وتعود إلى البيت، وبنبرة مرحة: تعال معي إلى الشرفة، الطقس اليوم جميل، ما رأيك في هذا المكان، يمكن أن نضع الشيزلونغ هنا في الشرفة، نضع كرسيّين بينهما طاولة، هنا سنشرب الشاي ونأكل الجاتوه ونستمع إلى فيروز ونجاة وعبد الوهاب ولغتنا الجميلة، هنا في الشرفة، لا تقل لي أن لديك اقتراحاً آخر، لن أسمح لك أن تقضي أغلب الوقت خارج البيت، أليس كذلك، حين كنت أتحدّث عن الشاعر الضلّيل في ذلك اليوم، كنت أعنيك، كنت سأسألك إن كنت ستظلّ هكذا أم أنك ستضعف، لم أجرؤ على عدم البوح لها بما أكتمه، نبت العرق فوق جسمي كله، حاولت أن أكون بسيطاً، قلت لها: في الواقع، وتلجلجت، الواقع لا يمكنني أن أفكّر مثلك، أنت تشاهدين الحديقة، وأنا ارى السور العالي، الواقع يا مها أنني لا أحب، لا أحبّ أحداً، لا أقصدك، ولكنني لا أحبّ أحداً، في كل زياراتها كانت تحشو حقيبتها بالشيكولاته والذرة المشويّة، وكانت تحشوها

بالجنس البشري والله، وتتركني آملة أن أراها في قلبي، هي تظنّ أنها في قلبي ولكنني لا أعرف، حين اصطحبت معها أختها، فكّرت في أسهل ما يمكن أن أفعله، هل أتركهما وأجري، هل أجبر أختها على افتراض أنني مجنون، توجسّت ممّا أفكّر فيه، فأخفيته، وحفظت رائحة كفّ يدها في كفّ يدي، والتزمت بالنظام الذي سيتبدّد بعد أن يتيبّس الدمع في عيون مها، كانت أختها قد سلكت طريقها إلى الله، إلى عالمه الآخر، فور تخرّجها، هل آزرتها بشدة، لا أذكر، ولكنني أذكر كيف آزرتني يوم وفاة زوج أختي، أذكر كيف حاولت أن تفرش أحلامها فوق سريري، كيف تمدّدت وارتعشت وخرجت عن عقلها تماماً، وتمنّت لو أنني الزوبعة التي ستحيطها وتقتلعها وتدخلها، كنت مدفوعاً لأن أنام على أحلامها، لأن أتدحرج إلى الزاوية التي تريد، مددت يدي إلى ردفيها، أحطتها، خلعت عنها عباءتها، وغطاء رأسها، جسدها رقيق ونظيف وناعم، ومبروم، ولكنني لم أكن في حالة ذهنية تسمح لي بصيد أحلام هذا الجسد، أحاطتني كل زهور الصبّار، أحاطني اليأس، فتخليّت عنها وجهاً لوجه، نحن كائنات معقّدة جداً، نتحايل لبلوغ ما نحتاج إليه، ونتحايل للهروب منه، نتحايل للاستمتاع باللّذة، ونتحايل للاستمتاع بفقدانها، هذه هي الفوضى إذاً، إن جسمي هو أصلي أو هو ظلّي، ولكنني لا أعرفه، يفاجئني ويحلم بكل امرأة، يحلم باجتهاد، وبسبب أحلامه يحمرّ خجلاً، ويستمتع ويذوب، ويصنع حوله شبقاً وفوضى عارمة، كأنه إذ ينشد الجنس، ينشد حفلة موسيقيّة، ينشد افتتاح معرض، فيخفق، أو كأنه ريش يطير وأوراق توت تتساقط، فيصيب، ومع ذلك فإنني أبتعد كالحوت المهزوم إذا صارت المضاجعة متاحة وممكنة، هناك امرأة واحدة هي التي أضاجع، فيصبح تفكيري رائعاً جداً، أتكالب على الجنس، وعضوي لا يتكالب، هو في عطلة إلّا إذا أصبح بمفرده، فيفعل ما يفعله الحارس الليلي، يقف وينام، ويقف وينام، ولا يتورّط في القتال حول حوافّ الآبار،

وكبرهان منه على أنه من لحم ودم نفيسين أصبح أكثر إقبالاً على بئره الخاصّة، يدخلها بشراهة، ويخرج منها بفخر، أفكّر الآن بجراهام جرين، ففي أوّل العمر ـ هو يقول ـ نحبّ النساء جميعاً، ونسعى لإنشاء علاقات جديدة، إلّا أننا في آخره نتشبّث بعلاقة واحدة، كأننا نحبّ أجدادنا، نحبّ أن نشبههم، جسّدي يعرف معنى الاعتدال، ومعنى النزق، روحي هي المرهقة، هي البدائيّة اللامعة مثل غرام حرّيف، أصبحت ـ روحي ـ إذا صادفتها عجيزة أو صدر، امتلأت كأنها تحاول سدّ الثغور، هذا التاريخ لي، هذا التاريخ ليس لي، زميلتي المسيحيّة الجادّة مثل راهبة، النشطة مثل ملاكة مكلّفة بالعمل الشاقّ، كانت تأتي إلى حجرتي في مكان العمل، وتمنحني أو تأخذ عنّي التعاليم، وبعد أن تذهب، أحسّ أنها تركت بعض أخشابها تحترق تحت قدمي، أحياناً كانت تشبه الجيتار المهمل الذي لا يعزف عليه أحد، وفي حجرتها تترنّح أنفاسها بين ارتفاع وانخفاض، وتدافع بحميّة عن زكي نجيب محمود ويوسف إدريس ولويس عوض وعن حسين فوزي وعن الكنيسة، وتلحس شفتيها المبلولتين بلسانها، وبلسان خفيض قدّمتني إلى زوجها، وبعد أن انصرف صارحتني: لقد جاء ليراك بعد أن أصبح اسمك يسقط من طرف لساني رغماً عني، كان الهواء الساخن يخرج من جوفها ويرتطم بسقف فمها، سمحت لي أن أشفطه وأنا أشفط شفتيها السخيّتين باللعاب، لم أعرف فماً مليئاً باللعاب مثل فمها، عيناها الحمراوان بعد أن تخلع نظّارتيها تصبحان حمراوين أكثر، تصل العمل قبل الآخرين، وتسند باب حجرتي يظهرها، فأسند جسمها بيأس، وتتسلّل أطراف اصابعي، وتخترق الجونلة والكيلوت كأنها ستصل بعد قليل إلى أرض جديدة، أو سماء جديدة، وإذا اشتدّ غزوي لهذه الأرض، همست بإلحاح: أرجوك، بحقّ المسيح، وكنت أبتعد حتى تبرد، كانت لا تضع أي شيء بين ساقيها، ذات يوم غفلت عن نفسها ولبثت فترة طويلة تستحثّني وكنت أدعكها كالحيوان المشنوق، إلى أن فاجأتنا زميلتنا التي خدّرها الله وجعلها تابعة كاملة له، ابنة الله انسلّت هاربة، وصاحبتي انسلّت هاربة

أيضاً، كانت رائحة فرجها قد حوّلتني إلى أخرس بالسليقة، في أيّام الآحاد التالية بدأت تتأخّر، أفهمتني أنها تذهب إلى القدّاس، ليتني أستطيع أن أعترف، أرجوك خذ هذه، ليتك تأكلها، وتناولني لقمة من خبز القربان، فآكلها أمامها، وتمتنّ، وفي اليوم التالي تنزلق إلى غرفتي إما مثل عشبة وإما مثل فراشة، إلى أن تعبت منّ الثقوب التي ملأت جيتارها، فصار يئنّ، وملأت رئتيها فصارتا ترتعشان، ممّا جعلها تفكّر في الإقامة والنوم بعيداً عن أحلامها، لم أحاول أن أمنعها، كنت إذا اختلست النظر إليها، أحسست أن شقّها الصغير ينبض أو يبكي، في يومها الأخير وقفت قرب مقعدي، وقفت هادئة، ولمّا زلقت أصابعي فيها، لم تفتحه، تشنّجت يدها على يدي، أحدنا لم يتفوّه، أحدنا لم ينظر إلى أعلى ولا إلى أسفل، كانت تنظر في نفسها، ثم مشت مثل متاهة مغلقة، مشت تماماً، من إجازة طويلة، إلى سفر للعمل بالخارج، رأيتها بعد سنوات كانت مثل سمكة من ذلك النوع، القرموط، أخرجوها من بحيرتها منذ زمن، ووضعوها في طشت به قليل من الماء، وقالوا لها: عيشي، كانت فقط تتحرّك وتتنفّس، وكنت منذ أن أجريت حوارات مع التماثيل والأفلام والكتب وميادين الشوارع والعزلة، وأنا أطارد طيوراً جديدة، تأكّد لي أن وجودها يمكن أن يرفع من الدرجة التي استقرّت عليها إلى الدرجة الأعلى، كان بعضهم يزيح القمامة بالطريقة التي أزيح بها قمامتي، وبعضهم يصل إلى السماء السابعة على السلّم ذاته الذي أصعده حتى قبل منتصفه، وأتقهقر، انتظرت من يساعدونني، انتظرت تروتسكي في الزوايا، وجلست مع أرشيبالد ماكليش على أكثر من قهوة، ومعنا محمد خلاّف أحياناً، وحاولت أن أقنع يوسف الخال وأدونيس وأنسي الحاج والماغوط وشوقي أبي شقرا وفؤاد رفقة وعصام محفوظ ورينه حبشي وتوفيق صايغ وفيروز، أنني ولدت في أكثر من مكان، أحدها مصر، وأنني ولدت في أكثر من تاريخ، بعض التواريخ قبلهم، وبعضها معهم، وبعضها بعدهم، وأن الأوراق التي في حقيبتي كلها باللغة العربيّة، ولكنها مثل أوراقهم مستعارة من لوتريامون ورامبو

ومالارميه وأبي نواس وبشّار، وأن طريقتي في الطيران والهبوط على أسطح المنازل تشبه طريقة غراب أبيض، وأن الهواء الذي أعبّه مغسول بزفير كثيرات منهنّ ليلى بعلبكي وحنان الشيخ وغادة السمان وكوليت خوري وجاذبية صدقي، وأنني أخاف إذا مشيت في إثر فيروز أن نُتّهم بأننا زوج منبوذ من سلالة منبوذة فلم تتّسع لنا سفينة نوح، يوم مررت على دار الهلال وقرأت صحفها المعلّقة على جدرانها الخارجيّة وكانت تنبئ بوفاة محمد عبد الحليم عبد الله، أحسست أن وطواطاً يلتصق بوجهي ولا يملك أحد أن يصرفه، حتى الفرق الموسيقيّة لم تستطع، كان محمّد خلاف فرداً في طابور، هو التمثال الإغريقي الذي يدفعني للتفكير في قتل الآلهة، هو التمثال الذي يجاوره يوسف كامل شرارة وعادل فيليب وظلّي، كانت سيمون دي بوفوار تقتحم عزلتي وتتجوّل فيها، وتراني أجلس في الركن وعضوي يتأرجح بشكل مضحك، أحياناً يشبّ وينتصب فيؤلمني وأخجل منه، وأحياناً ينكمش ويرتخي فيؤلمني وأخجل منه، ولكنها تضحك وتخرج بعد أن يتعلّق تروتسكي بذراعها، وكنت عن بعد أشمّ أنفاس الله تهزّ فستان سيمون فأتراجع وأظن أنها تمنعني من التجربة، على الرغم من أن تروتسكي ترك ذراعها وأصبح يحيط خصرها، كانت بيروت هي المهرّج والمظلّة والحصان والحمل والبحر المقطوع اليد في مكان بعيد، كانت بيروت وحدها هي السماء الزرقاء فوق رأسي، اعتقدت أن هنري باربوس عندما طلب منّي أن أتبعه لنذهب معاً إلى الفندق الذي يعرفه، اعتقدت أنه سيطلب مني أن أعود، ولكنه لم يفعل، فبقي واستقبلت معه رفاقه الآخرين، وفرحت بألبير كامي، وجاك بريفير، العزلة هي التي أقنعتني أن الشعر لا بدّ أن يظلّ تائهاً بيني وبيني، زملائي يتقدّمونني، وأبي يستبطئني، والتراب يصبح أعلى من سطح الأرض، وأعلى من حذائي وحافّة بنطلوني، والتراث عظامه التالفة داخل القبور التي يأتي كل يوم من ينبشها، فيما عطوره قد فرّت معلّقة في أقدام طيور ممسوسة تتظاهر بالشرود، أذكر أنه لا شيء أصعب من ممارسة الحبّ في غرفة

امرأة وحيدة، فهي قد تنقلب عليك في أيّة لحظة، قد تفكّر إذا لم تطع رغباتها في إبلاغ الشرطة بأنك سرقت صندوق أسرارها، أو امتثال بوذا الذي وضعته بيديها فوق رفّ المكتبة، هي ذي الأرملة التي تتمدّد فوق الحنان والقسوة، ستنفجر في تهديدك بالبحث عن تمثال لم تملكه قطّ، وعن أسرار لم تجرؤ أن تحلم بها، غرفة الأرملة مكيّفة الهواء، والسرير في منتصفها، رأس السرير فقط يرتكن على الحائط، وحوله فراغات تسمح لها أن تتلوّى، فمها أوسع من فم فرن مشتعل أو بحيرة، وأسنانها غير برّاقة وغير نديّة، لكنها عنيفة تعضّ بسعار، أظن أنها سرقت جثّة المسيح وتركت الصليب فارغاً، أظنّ أنها طردته من الجنّة، هي هكذا دائماً تهيج قبل أن تتمدّد على السرير، لا يمكن لأكبر ذاتيّ أو أنانيّ أن يفكّر في نفسه إذا وقف أمامها، إنها تقيسه، تمدّ يدها إلى فتحة بنطلونه لتجرّب شدّة حقدها وضراوتها، لا تعرف اللغة الأسطوريّة، وتظنّ أن الصقور لا تنتظر، أن الصقور تهاجم فرائسها فوراً، إنها مستلقية مثل حنان مريض، ويدها تعمل داخل فتحة بنطلوني مثل ملقاط، ومثل نوبة غضب، ومثل عاصفة، لكنني كنت خائفاً، قلت لها: لا أستطيع، قالت: أرجوك، قلت: لا أستطيع، قالت: أدخل رأسه فقط، قلت: لا، قالت: إذن ضعه في فمي اريد أن أمصّه، سأمصّه، هل تعرف سأمصّه فقط، أنت لا تعرف، أنا قحبة، أنا لبوة، أنا فاجرة، أنا هايجة، أرجوك، سأمصّه فقط، صارت تشفطه في فمها كأنه الحياة المضغوطة، وبدون أيّ أمل في علاقة طويلة هربتُ، لكنني بعد فترة، انهمرت جميع ذكرياتها فوق رأسي، فاشتهيتها وأحببتها، ثمّة حالة لا علاج لها، إنها تلعق فتطير كأن لها جناحين، تلعق وتصبح ذاتاً أخرى، استبدّ فمها، استبدّ وتشبّث، استبدّ حتى سحبت مائي من قعره، وطفت سوائلي فوق شدقيها، كانت رعشاتها تتوالى، وهذيانها يعنف، وقبل أن أسحبه كانت قد دفعت يدي داخلها، وظلّت تلهث، قل إنك تحبّني، أريد أن أسمعها، نادني باسمي، أرجوك، قل: يا ليلى، قل: يا لولو، وظللت ضائعاً بشهواتي، لا أعرف لها شكلاً ولا هيئة، لا أملك أن أنظمها، كنت

أَتَقِدُ في جوانب، وأتراجع في أخرى، وإنسانيّتي مثل سوائلي المسكوبة، أفقدها وأتمنّى أن تعصمني، أعرف الآن أن الإنسان بلا مثل عليا مثل ذئب فوق حصان يجري، ويحتاجان إلى نهر يوقفهما، كنت أتمنّى أن يكون بصري حديداً، وأن أحمل بندقية صيّاد، وأقتل كل الحمام الذي يطير في حديقة يوسف النبي، أتمنّى أن أقتل يوسف نفسه، لولا أن زليخة ما زالت تتأوّه في غرفة مغلقة وها هي ذي تأوّهاتها تقف كحاجز بيني وبين يوسف، وها هي ذي تقف بنفسها، ولأنني لمستها بأطراف أصابعي في كتفها، فأغضت وأغضيت، وأحنت وأحنيت، واقتربت أكثر، فكففت يدي ولم أتجاوز ذلك، ولأنني فعلت ما فعلت كرهتني وخصّتني بثأرها الذي خصّت يوسف به، وقرّرت أن أدفع خصومتها عنّي باللجوء إلى أختي، فوجدتها تشعر بالذنب وتعيش انسدادها العاطفي، ولو حاصرتها لادّعت أنها أصبحت مصابة بنوبة الحياة داخل عالم لم تعد تعي ما يحدث فيه، ولا تسمح لنفسها بغير التفكير في غطاء رأسها والصلاة والحجّ، وبعد أن تملّ من احتجاجاتها بالنوم والصمت، تخرج للمشي، فإذا أصبحت وحيداً، أنادي إله أختي واقول له: ساعدني، ماذا فعلت لأستحقّ كل هذه العزلة، وهنا أجد بالصدفة الصور الخمسة، وأكتفي بأن أشير إليها، لكن دريّة تتطوّع وتعينني على الخروج وعبور الشارع، بأن تتقدمني وتخايلني وتناديني انظر، فأنظر، تناديني انظر بعمق فأنظر بعمق وأراهم ينزلون من أزمنة تشبه فصول الربيع، ووجوههم كما رأيتها أوّل مرّة، وأعرفهم واحداً واحداً، روبرت ميتشوم، جاك نيكلسون، إليزابيت تايلور، كيم نوفاك، ديمي مور، شارون استون، إنجريد برجمان، سيمون سينيوريه، مارلون براندو، بيرت لانكيستر، هنري فوندا، ستانلي كوبريك، العمل الطويل دون لعب يجعل جاك كاتباً رديئاً، جان جابان، كاترين دينيف، إيف مونتان، ريتشارد ويدمارك، همفري بوجارت، كلينت إيستوود، صوفي ميرسو، وودي آلان، لا تصلّوا على النبي، لا تصلّوا على النبي، وجين فوندا، وليزا مانيللي، وفانيسا ريدجريف، ووالتر ماتاو، وجاك ليمون،

وسيدني بواتييه، وجلين فورد، وإيرين باباس، وجريتا جاربو، وكلوديا كاردينالي، وبريجيت باردو، تبعت هذا الغلام الشرّير الذي يصفر ويداه في جيوبه، كاترين هيبورن، وأودري هيبورن، وآل باتشينو، وروبرت دي نيرو، ومارلين مونرو، وداستين هوفمان، وكيرك دوجلاس، ومارشيللو موستروياني، وصوفيا لوّرين، وريتشارد بيرتون، وناتالي وود، وفرانك كابرا، هل أنت أيّتها الكلمات أساطير، ساعديني لأسرِّح شعري بتثاقل في مرآة، وإنجمار برجمان، وجون هيوستن، ووليم وايلر، وهنري كنج، فيلليني، وروسيلليني، ودي سيكا، وأورسون ويلز، وفرانسوا تروفو، وهيتشكوك، وكارسون ماكلرز، السيّدة الحسناء التي لا ترحم اتّخذتك لها رفيقاً، هناك أشياء كثيرة لا أجرؤ أن أقولها لكم، وأشياء كثيرة ما كنتم لتدعوني أقولها، ودريّة شرف الدين، وعدنان مدانات، وسامي السلاموني، وأنستاسيا، وموبي ديك، وسبارتاكوس، والأخوة كارامازوف، وعناقيد الغضب، لكن اضحكوا مني أيها الناس في كل مكان وأنتم الذين هنا خاصّة.

الفصل السادس:

الحب الضائع

عندما سألت أبي: هل احتفظت ببعض آثار جدّي وبقاياه، ابتسم وقال: نعم، قلت: أين هي؟ لم يجبني، كان لا بدّ أن أنصهر ويحدث لي ما حدث لي، كان لا بدّ أن أصبح أنا نفسي بعض آثار أبي، لأدرك ما كان يعنيه، فوق رفّ من رفوف مكتبتي، يمكنك أن ترى بيسر نظّارات أمّي وآخر روشتاتها الطبّيّة، وفي زاوية من

زوايا الغرفة ستجد عكاز أبي مركوناً إلى الحائط، لم تكن لأمّي شجرة خاصّة يمكن أن أجلس تحتها، نخلة أبي هي نخلة الله، أخذها معه عندما رحل، أبي مشّاء جوّال وصانع عمرانٍ لا يهدأ، إذا جلس قام، وإذا قام مشى، عرقه لطيف كأنه ابن ماء السماء، ابن ماء الندى، تخيّلتهما، أبي وأمّي، بعد موتيهما، يجلسان وحدهما في ركن من عالم لامرئيّ، لا يخدمهما أحد، ولا يخدمان أحداً، ويبتسمان ابتسامات واضحة غامضة، ولا يأكلان، يكتفيان بالنظر إلى سرير ينام فيه القمر، لكنني منذ ذهبا، لم أتوقّف عن التفكير في ذلك الحارس الذي اصطحبهما إلى هناك، لعله العريف ذو الشريطتين الواقف دائماً في مكان خفي، لعله الكلب الوولف، لعله صاحب الوادي الأخضر، وصاحب درب الآلام، لعله القبطان العجوز، لعله الطفل الصغير، لعله القومندان، في كل حالاته، أصبحت أراه عن قرب، كنت من قبل أتخيّله وأحسّه يجلس عند سفح الجبل من الجهة الأخرى، منذ ولدتني أمّي وأنا أصعد جهتي من الجبل، اهتزّ جسمي عندما وصلتُ القمّة، نحن الآن في جهة واحدة، هو هو في كل حالاته، يجلس على السفح، بغير نعل، بغير جورب، بغير قبّعة، بغير سلسلة مفاتيح، يجلس على الأعشاب مباشرة، وهاأنذا أهبط إليه، لا أفكّر أن أنظر إلى المسافات التي تركتها ورائي، أهبط ببطء أو بسرعة، لا أعرف، هاأنذا أراه بدقّة، هو يحاول ألاّ ينظر ناحيتي، لا أعرف إن كان سينتظرني حتى أصل إليه، وأبلغه، أم سيصعد ويستقبلني، عندما رأيته بدقّة، قلت: لعله البارون، لعله الشحاذ، لعله رجل الله، لعله الفاشيستي، لعله العرّاف، أحسبه بملابسه التي تدلّ عليه شخصاً قديماً ينتسب إلى الفينيقيّين والآشوريّين والبابليّين والإغريق والفراعنة والغجر والأرمن والبرابرة، أحسبه بملابسه التي تدلّ عليه شخصاً حديثاً يعيش في مدينة أعرفها، ربّما القاهرة، بيروت، دمشق، المنامة، باريس، برلين، أنفاسه ليست عطنة، ليست طازجة، ليست تذكّرني بما أعرفه، وليست غريبة عمّا أعرفه، هكذا أراه بدقّة، هكذا أجفل فتنفرط أيّامي، سوف يظلّ ذلك أكثر ممّا أحتمل، سوف

أتحاشاه طوال النهار، سوف أتحاشاه أوّل الليل، وإذا ذات مصادفة التقت عيوننا، سأشيح بوجهي، أظنّ أن شواغلي لا تكفي كي تساعدني، لا أظن أنني بالنسبة له شخصٌ ثمينٌ أو فريدٌ، كان ينقصني كل شيء، ومع ذلك كانت يداي طافحتين، لم نكن نتفاهم جيداً، لم نكن متشابهين، كان مستقبله عند السفح أطول من مستقبلي على جانب الجبل، أحاول أن أستعين على نسيانه، أغمر أعصابي في شعر أنسي وأدونيس والمتنبّي ممّا يرفع معنويّاتي، أحاول أن أستعين بالقصر وأرض البشر والأبله والجحيم والعطر والكائن الذي لا تحتمل خفّته وحكاية زهرة وميرامار، أندهش، اكتسحت الروايات والشعر والرسوم والسينما حياتي برمّتها، أحاول أن أستعين بها، وفي كل مرة أكتشف أن وجهه المغطّى بنقاب شفاف، نقاب سماوي، يتخللها جميعاً، الروايات والشعر والرسوم والسينما، يتعلّق بحوافّها مثل مهرّج، مثل ساحر، لعله المهرج، لعله الساحر، لعله الرقيب ذو الأشرطة الثلاثة، كل ليلة قبل حلول النوم مباشرة، يرفع الغطاء عن وجهه ويخايلني، فأخاف من النوم، لأنني أخاف من زياراته لي وأنا نائم، في بعض الزيارات يمسك ذراعي ويصحبني إلى المدن، فنراها، ونرى أضواءها ونسمع ضجّتها، مومساتها يمشين مشية السيّدات، ورجالهالا يهتمّون بالفرق، وهو يدور حول الجميع، ولمّا نعود، يكون في كامل قوّته، وأكون كسرة خبز، عندما كنت صغيراً، كنت أظنّ أنه صاحبي، وكان لا يعلّق على ظنوني، فقط يضحك ويلعب معي، ويلعب مع الأطفال الآخرين، ويقوم بأدوار متعدّدة في آن واحد، هو هو في كل مكان، كان يشاركنا القفز والنطّ والصفير والحجلة، ويشارك غيرنا جنازة تمرّ، ومثلنا يتفرّج ويشاهد، ومثلهم يهرول ويمشي تحت النعش ويزاحم حامليه، كانت سحابة من التراب تنبعث من عنفوان أقدامهم، وتطارده وتطاردهم، فيسدّ أنفه بأصابعه مثل جنتلمان، أو ينشّ عن أذنيه ذبابة كأنه باشا قديم، أو يتوارى بإصرار عفريت، لعله الجنتلمان، لعله الباشا القديم، لعله العفريت، لعله الرقيب أوّل ذو الأشرطة الأربعة، الحشد يمشي في اتّجاه واحد، على

هيئة كتلة واحدة، والناس تتدافع، وتتلامس، وتتناكب، وعندما نحن الأطفال نرى الجالسين أمام أبواب بيوتهم، ينتفضون، ويقفون، ويرفعون أياديهم اليمنى، ويفردون الأصابع السبّابة ويتمتمون، كنّا نفعل مثلهم ونضحك كأن ما يحدث فصل من فصول لهونا اللذيذ، أيّامذاك لم أكن أخاف منه، لأننا كنا نراه أيضاً يفرد إصبعه السبّابة ويتمتم، كنت أقيس طولي بطوله، تخيّلت أنه يكبر معي، وأنه يوماً بعد يوم، يباعد المسافة بين جسمينا، ولّما بلغنا أنا وهو رجولتنا، أصبح لا يكلّمني إلا نادراً، واصبحت لا أبادئه الكلام، إذا رأيته أغمضت عينيّ، ومع ذلك كنت أحسّ أنه يراني دون أن يحملق أو يرمش أو يرفّ، كنت أحسّ أنه صار أقوى منّي، صار يستمتع بكوني وحيداً، لم أعد ألجأ إلى اللعب معه، أصبحت ألعابي لي وحدي، لا يشاركني فيها أحد، كنت ألعب مع الحروف والكلمات، ألعب مع الله والملائكة، ألعب مع أهل البيت، ألعب مع الممسوسين والحمقى وأبناء السبيل، فيما أصبح هو طويلاً مثل وحشة طويلة لا نهاية لها، بديناً مثل غربة بدينة لا نهاية لها، ذات مرّة أوقفني وقال لي: هل تكرهني؟ لم أردّ، لم أشأ أن أردّ، كرّر سؤاله: هل تكرهني، قلت: نعم، قال: هل تحلم أحياناً؟ قلت: ماذا؟! قال: أعني أحلام يقظة، قلت: نعم، قال: بمَ تحلم؟ قلت: بأن يقتلك أحدهم، ضحك وقال: بدوني سيصبح كل شيء لا معنى له، قلت: بدونك سنشقّ أنهاراً ونزرع حدائق ونرفع سماءً وننشئ أطفالاً وأشعاراً وفلاسفة خالدين، ووقتاً يشبه سراويل الله، قال: هل رأيت سراويل الله، قلت: أراها دائماً، قال: من تظنّه يجرؤ ويقتلني، فكّرت في الأنبياء البرابرة فوجدتهم يستعينون به، بالأنبياء الوديعين وجدتهم كذلك، فكّرت في كاليجولا ونيرون وستالين وهتلر ورويسبير وسان جوست والمركيز دي ساد وبن جوريون وهنري ميللر ولوتريامون وبودلير ورامبو وأبي نواس وعبد الرحمن شكري وسعيد تقي الدين، اكتشفت أنه أصبح حامياً لكل منهم على حدة، فكرت في هيجل وكارل ياسبرز وجابرييل مارسيل وسارتر وكانط وابن عربي والنّفري، وجدتني

أتركهم ويتركونني، فكرت في يد الله فاكتشفت أن سائلي وهو الضّليل، وهو المتسكّع، عندما يحبّ أن يستريح، يتّخذ يد الله عشّاً وينام في أحضانها، عندئذٍ لمح ما فكرت فيه، لمح ما قلته لنفسي، لعله الضّليل، لعله المتسكّع، وضحك، ولم ينسحب إلّا إلى آخر نقطة يمكن إذا نظرتُ في أيّ اتّجاه أن أراها، هنالك وقف، وعرفت لماذا يحبّ أن يصير شبحاً، فإذا ذات مرّة قلت لنفسي: يا له من وقت طيّب، يا لها من حياة جميلة، إذا ذات مرّة قلت لنفسي: سأذكر كل الأسماء التي أعرفها لأحتمي منه وأستقوي عليه، برز الشبح من نقطته البعيدة، وأخذ يتمطّى، لهذا السبب لم أعد أخافه وحده، أصبحت أخاف أنبيائي البرابرة والوديعين وكاليجولا وياسبرز وابن عربي وأصحابهم، أصبحت أخاف يد الله، وأستحي أن أقول لنفسي، إنني أكتب الشعر، لا لأنني آمل أن أقرأه على مسرح أو أمام جمهور، لا لأنني آمل أن يحفظه الآخرون، وأن يوضع على رفّ في مكتبة، وأن تتغنى به امرأة شابّة أو عجوز على حافّة نهر، وان يرفعه المتظاهرون مثل راية، وإنما لأنني أريد أن أقاوم خوفي بلسان مليء بالفرح أو الشجن، بقلب مليء بالطيور أو أعشاش الطيور، أريد أن أقاوم ذلك الشخص الذي يطاردني، والذي ينتظرني عند السقف، أقصد عند السفح، والذي ربّما يملّ من الانتظار فيصعد ويستقبلني، أحياناً أترك وراء ظهري السادة سبينوزا وكيركجورد ورينيه حبشي وسارتر والسيّدات سيمون دوبوفوار وحنه أرندت ونازك الملائكة، وأحسّ بقعقعة الضجيج في أصواتهم، أحسّ بروحانية الهذيان، أحياناً أمشي في صحبة الأمير ميشكين ومواطنه بازاروف، وأتأمّل ما يفعلانه، وأسمعهما يخوضان حذيثاً عن الصراع مع الماضي والجنّة والجحيم والميتافيزيك، عن اللامبالاة التي تجمع الوجود والعدم وتفصلهما، عن المرأة الصامتة، والرجل الصامت، عن الزمن المفقود، أسمعهما يشيران إليّ ويقولان: لماذا لا يشبه عمر الخيّام، ولا يشبه دانتي، ثم يحتدمان، يقول الأمير: انظر، ها هو الكاهن يدقّ الجرس، مثلما يفعل كل يوم، يقول بازاروف: لكن انتصاب قضيبه

يكاد يمزّق رداءه الكهنوتي، يقول الأوّل: أف، أووف، هل الأرض تعرف إلهاً حقاً يفرض عليها سلطانه أحياناً وحنانه أحياناً، يردّ الثاني: الأرض رحم نتن يرغب في أن يمتلئ بالسموم والفولاذ والهلوسة وحبوب اللقاح، يقول الأوّل: ابن عمّي حكى لي أنه امتطى كل شيء صادفه ولم يصبح سعيداً وحبيبتي حكت لي أنها ليست سعيدة لأنني أصون عذريّتها، يقول الثاني: ابنتي تحّب أن يضاجعها عشّاقها على طريقة الذئاب والكلاب والثعالب وأبناء آوى، أقسم إنني عندما أسمعها تئنّ، أختلس نظرة من ثقب الباب، وأكتشف أن مارسيل بروست كان يختلس النظر قبلي، أنصرف مبتعداً عن الأمير ميشكين والعدميّ بازاروف، وأفكّر في الأزهار الحمراء وقوارير النبيذ والحيوانات وحيدة القرن وباليتات الرسم وحوامل اللوحات وورقة بيضاء نتسابق كلنا لنملأها، أحسد أنسي الحاجّ لأنه يخفي ورقة أخرى في جيبه، أفكّر في جوزيف كونراد وهنري باربوس وجراهام جرين، وأسمع فجأة من أحسبه آدم الطيّب، آدم الفارع، آدم الطويل، آدم المطرود من الجنّة، يخاطب إحداهنّ: أريد يا حبيبتي أن أقبّلك كما يقبّل الإنسان نفسه، أو كما يقبّل فراشة بيضاء، ويصمت، ثم تملأ أذني طقطقة قبلة، فجأة أسمع من حوّاء العارية، حوّاء التي تغطّت بغيمة اصطادها لها آدم، أسمعها تخاطب أحدهم: أريد يا حبيبي أن أنام تحتك مثل حمامة برّيّة أو غزالة حرون أو ملاكة شبقة، ويملأ أذني صوت الارتماء على العشب، ولمّا ينقطع الصوت، يعاود الظهور، ويتدرّج، يولد مثل وشوشة، ثم يكون وحوَحة، ثم آهات، إلى أن تفوح رائحة احتراق العرق، فأفيق، وبمجرّد أن أفيق، أرى صاحب طفولتي يقف إلى جوار عمود نور، ويراقبني، الآن فقط أتذكّر أنه اصطحب كل من أحببتهم واحداً واحداً، وعاد بدونهم، المازني وصلاح عبد الصبور، ويحيى حقي، ومارون عبود، وسعاد حسني، وخالي عبد العليم، وماجدة شعراوي، وألفت الروبي، وزوج أختي، هكذا أراه بدقّة، فتنفرط أيّامي، أتحاشاه طوال النهار، أتحاشاه أوّل الليل، عندما اعتلّ قلبي، وأرقدوني في الإنعاش، زارني أكثر من مرّة، كان يقف

أمام ستار، ثم يرفع الستار عن أصحابي الأحياء جميعاً، فإذا بي أراهم بغير شعر، بغير أسنان، يمسكون عكّازات يستندون إليها، ويقفون على حافّة حفرة عميقة، كأنهم بعد لحظة، بعد لحظات، سيسقطون فيها فرادى، واحداً بعد الآخر، كان يقف أمام باب حظيرة، ثم يفتح الباب الذي وراءه اصطفّ أصحابي جميعاً، فإذا بي أراهم، قطيع حيوانات تؤدّي أدواراً متشابهة، تولد وتتناسل وتتعارك وتتشبّث بالحياة، ثم تفنى كأنها لم تكن، حتى الحيوانات التي أصابها الغرور لأنها تتكلّم وتكتب وترسم وتفكّر وتغني وتظنّ أنها الحيوانات الأسمى كانت أيضاً تولد وتتناسل وتتعارك وتتشبث بالحياة، ثم تفنى كأنها لم تكن، كان لا بدّ أن أحتال عليه، أن أراوغه، لا بدّ أنّ هناك بوابات للخروج، لا بدّ أنّ هناك إمكانيّة لأن ننتصر انتصارات مؤقّتة، عابرة، متقطّعة، لا بدّ أنّ هناك طاقات وخيالات تسمح بذلك، أقول لنفسي: إذا ضاعت الطفولة ضاع الله معها، وانشغلنا بقيّة العمر في استعادته، سأضع رأسي بعض الوقت على فخذ الماضي، لا من أجل أن أتذكّر، ولكن من أجل أن أنام، سأطلب من خيال أبي أن يطرد شبح القومندان، سأطلب من أمّي أن تهذّب الباشا القديم، لا بدّ أن أنام، وإذا نهضت في الساعة السادسة، سأعاود النوم لأنهض ثانية في العاشرة، وأتناول الفطور وحدي، لا أعرف إذا كنت اليوم سأضحك وأتكلّم، أم أنني سأمضي الوقت كالعادة، لن أستعين بأحد، سأستعين بعمري، في الصبا، وفي المراهقة، كانت الفتوّة غامرة، والجسد مشدوداً، والعضلات على آخرها، كان الاشتهاء يغلب على المحبّة، ويملك ألف طريق وألف طريقة، وكان قلبي صغيراً، لا تجارب له ولا خبرات، بينما المحبّة تحتاج قلباً كبيراً على مقاس قلب أمّي، كانت المحبّة تملك طريقاً واحدة لم أفكر في أن أقطعها، أغرتني طاقاتي وقوّتي، وأغراني الآخرون، فمشيت مثلهم في الألف طريق، مشيت في الاشتهاءات، التي كلها تبدأ من تحت قدميك، أو من فوق رأسك، التي كلها تبدأ من خصيتيك أو من أسفل بطنك، من فمك أو من مرونة ساعديك، سمعت الأكبر منّي يقولون أن طريق

المحبّة تبدأ من مكان بعيد، مكان في أقصى ركن، في ذلك الجزء المجهول من الجسم، لكنني في طريق الاشتهاءات، كنت أحمل نفسي كمراهق على الغبطة والفرح، أدخلت أصابعي السبّابة والوسطى، ولساني، في فروج كل جاراتي وقريباتي، لأنني أتحكّم فيهنّ كطاغية، كأسوأ طاغية، كنت أستطيع أن أشكّل امرأة واحدة من كل النساء اللاتي أعرف، ولا تستطيع واحدة منهنّ أن تعصاني، وكنت أعلّق أهمية كبيرة على تلك الملذّات، حتى التفاصيل التافهة كانت تكتسب قيمة، وتتّخذ معنى، كل رغباتي تتألّق في ذلك الركن المظلم من غرفتي، أو في ركن الحمّام، في هذين المكانين كنت أجهّز عملي ومعملي وأمدّهما بكل ما يحتاجان إليه من الطاقة والخيال، وأبدأ في الاختراعات والتجارب، لم أعتذر حتى للنساء الحوامل، لأنهنّ أيضاً مثيرات وفاتنات، أدخلت عضوي إلى حدود الخصيتين في أفواههنّ، ثم مسحته تحت آباطهنّ جميعاً، بعضهنّ كنّ يستمتعنَ بالشمس الساخنة المخبوءة تحت بطني، لم أسيطر على الماء الذي ينزل منّي، أيّامها كانت أمطاري لا تتوقّف، تهطل طول العام، هدّدتني النصائح والتعاليم بسوء العاقبة، ولكنني تركت مائي ينزل، هنالك سيل يفيض، لا يجفّ ولا يشحّ، ولم أكن أتململ، قالوا لي: بصرك سيضيع، قلت: ستبقى روحي، قالوا لي: ذاكرتك ستفنى، قلت: النسيان أفضل، استعملت يدي أحياناً، استغنيت عنها أحياناً أخرى، مراهقتي كلها عبادة، عبادة الله، وعبادة مخلوقاته الأنثويّة، فإذا عبدت الأوّل، وكنت أفعل ذلك، تطهّرت بالنور وغسلت روحي وجسدي، وإذا عبدت الثانية، تطهّرت بالنار وغسلت أيضاً روحي وجسدي، ومع دوام العبادتين زمن المراهقة كله، اكتشفت أن التمرّد على الله ضرب من العبادة أفضل من الخضوع، وأن الفسق مع مخلوقاته الإناث ضرب آخر من العبادة أفضل من تمام الشريعة، زوجة الريجيسير كانت تضيء النور حتى أراها، ثم تخفته، وتخلع ملابسها بالتدريج، وتعرّي ثدييها، وتنظر نحوى، وإذا لم تجدني أهتاج بالقدر الذي أعجز معه أن أمنع نفسي عن تعرية عضوي وإمساكه وفركه،

كانت تتمادى كي أفعل، لم أعرف اسمها يوماً، لم أكلّمها يوماً، ولم أرَها عن قرب، آمال أخت توتو الصغرى، لم تفعل ما فعلته زوجة الريجيسير، فعلت ما يمكن أن تقوم به عذراء هائجة، أيضاً فوق سطح بيتها، في الصيف وفي عزّ الظهيرة، آمال من مكانها هناك، وأنا من مكاني هنا فوق سطح بيتنا، وحيث لا أحد يرانا، بادلتني الفعل مرّة واحدة، ثم رمتني كقشرة برتقالة، هي الوحيدة التي أنستني أنني في العراء، وأغرتني بأن أخرجه من فتحته، وأفركه، وأنزل مائي فيما هي ترى كل ذلك، آمال لم تكلّمني قطّ، وعندما حاولت أن أكلّمها، رفضت، لن أستعين بأحد، أنا مسكون فعلاً، هذا الشخص بداخلي، كان في قمّة عنفوانه وقوّته أيّام مراهقتي، كان لا يسمح بالمشورة، وينفرد بإصدار الأوامر، وإذا أحسّ أن صاحبه العريف ذا الشريطتين، صاحبه الكلب الوولف، يراقبه، زادت متعته، لأنه هكذا ينتصر عليه، هكذا يوغل في الفعل، المراهق داخلي، لم يكن الوحيد الذي يحتلّ هذا الداخل، إلى جواره ظهر أشخاص صغار آخرون، حالمون، ومعذّبون، وقتلة، كنت مسكوناً فعلاً، المراهق داخلي كان يعرق، وهم يتغذّون من عرقه، ثم أصبحوا يتغذّون من لحمه ودمه، وأنا كنت أحلم وهم يتغذّون من أحلامي، وعندما سقط تاج المراهق وضمرت قوته، وأصبح بلا إكليل، كانوا هم قد بلغوا شبابهم وفتوّتهم، وكان أحدهم يتجهّز ليصبح الآمر، هو الآمر الآن، عندما التفت حوله، وجد أن حديقة الاشتهاء ضاقت، وأن طريق الاشتهاء أصبحت طريقاً واحدة مهجورة، ووجد أن طرق المحبّة اتّسعت، ففي الوقت الذي أصبح قلبي فيه كبيراً، على مقاس قلب أمّي، أصبح للمحبّة ألف طريق وألف طريقة، الآمر الآن عندما كان صغيراً يعيش في ظلّ الآمر السابق، كان ماكراً، يختفي ويتدرّب خلسة، يستغلّ استراحات سيّده، وقيلولته، ويتعلّم فنون الحبّ الضائع، الآمر الآن تعلّق في أول أمره بهند بنت النعمان وهند بنت عتبة وعائشة بنت طلحة وقطر الندى بنت خمارويه، وزبيدة زوجة الرشيد، وأمّ البنين زوجة عبد الملك، وأناييس نن، وسيمون دوبوفوار

وإيريس مردوخ ومرجريت يورسنار وفرانسواز جيلو وجورج صاند وحنة أرندت وليف أولمان وليلى بعلبكي ومرجريت دورا وفيروز وجاكلين، الآمر الآن اكتشف أن المرأة الوقور أكثر قدرة على تلقيح الخيال من المرأة الجريئة، الوقور تجعل الاستجابة أعنف، لأن أوضاعها وأصواتها وكلماتهلا ونبرات فحيحها تبدو بكراً بقدر ما تبدو غريبة، استسلمت للآمر الجديد، صار حيلتي في مدافعة القومندان، ومعه اخترعت نساءً وأحببتهنّ، تدرّبت مثله أن أعشق الغائبات، البعيدات عنّي، الراقدات على حدود الزمن البعيد، أو حدود المكان البعيد، صرت حريصاً على أن يظل الحلم قوياً في مكانه، وأن تظلّ السماء في مكانها، بدأت أعدّ وقوداً وأطعمة لا تنفد ولا تستنفد، يعيش عليها أشخاصي الجدد، ومعهم آمرهم، توارى الآمر المراهق الفاتن، واستبدّ الآمر الخياليّ المفتون، والعبادات هي العبادات، عبادة الله، وعبادة مخلوقاته الإناث، أصبحت أشعر بالحنان والحنين، بالقوّة والضعف، بحرّيّتي وحرّيّة محبوبي، بضعف النميمة أن تنال منّا، وضعف المكان والزمان أن ينال، صار أصدقائي وما زالوا يسخرون أو على الأقلّ يمزحون، أصبحت أستطيع أن أشاهد القبطان العجوز، المهرّج والساحر، وهو ينحني وينصرف كأنه مهزوم، عندما أجلس أنا والآمر مع دريّة، فنكون في الجنّة، ويكون هو خارج أسوارها، ظننته عدوّ يوحنا السكران، عيناه القاسيتان أحياناً، وجسمه القوي الشبيه بجسم مارد، ووجهه الصوفي، وابتسامته الملتوية، وقدماه الحافيتان، وتلاميذه ومريدوه، كلهم خارج أسوار الجنّة، كل ليلة كان يتجاسر أكثر، وكنت مثله أتجاسر أكثر، يقف بباب حجرتي فارداً ذراعيه أفقياً، فأفكر وكأنني لصّ يتسرّب إلى حجرة قوت القلوب، ويسرق منها أحلامها، ويزرع فيها أحلاماً جديدة، فإذا سمع أصوات اللّذة تخرج من حلقي وحلقها، تخرج من حلقينا، فرّ هارباً، ليعود في اليوم التالي، لقد أصبحت معه أكثر جرأة، ولكنه أصبح أيضاً أكثر حضوراً، وأعمق ثقة، أنا المسكون، وهو الياوران، أمس فقط اعترفت له ببعض جبني، ببعض ضعفي، فتأثّر بشدّة، وجلس

إلى جواري، سألته: كم ستطول مدّة بقائك جنبي، قال: لا أدري، قلت: هل تعرف أنني أنتظر نساءً كثيرات، قال: وما الضرر؟ قلت: هل تحبّ أن تراني وأنا أضغط وجهي في صدر إحداهنّ، وأملأ فمي بحلمتيها، هل تحبّ أن ترى ثيابهنّ الداخلية مكوّمة على الأرض، هنّ يفضلن دائماً أن يمكثنَ معي عاريات، سألنيْ: وهل في أثناء ذلك تحصل على اللّذة، كنت أعلم أنه لا جنس ينتسب إليه، أن أولاده يخرجون من مسامّه، ويعملون تابعين له، قلت بصوت مفتعل لا يستطيع أن يرتاب فيه: نعم أحصل على أكثر من لذّة، لذّة الحب الضائع، ولذّة أن أنساك، حين غادرني، كنت مسروراً، أعرف أنه سيعود، سيظلّ يعود، وأنني سأظلّ أجلب النساء المستحيلات، شولميث، كيم نوفاك، إليزابيت تايلور، ثامار، كل قائمة حاولت أن أعلّقها على أحد حوائطي، كانت تتّسع، فأغيّرها، وتتّسع، لماذا تحرص درّيّة أن أكتب اسمها في كل قائمة مرّتين، مرّة في أول القائمة ومرّة في آخرها، ولماذا أدلّلها وأوافق، لماذا يمنعني الكهنة من تدوين أسماء سكينة وعائشة وفاطمة وخديجة ومريم، كيف دخلوا بيتي، لقد انتهى كل شيء، وتحرّرت أعضائي، وتحرّر قلبي، وما زال القومندان يراقبني، لم يبق لي إلّا أن أتشبّث، إلّا أن أحضن القيثارة، إلّا أن أغسل حنجرتي كل يوم، وأمسح عينيّ، وأطمئنّ على محبوباتي، حتى إذا حان موعد اليأس، موعد أن أيأس من المستقبل، ورأيته يقبل من بعيد، يقبل على عجل وفي بهجة، ذلك البارون، ذلك العرّاف، ذلك الفاشيستي، وامتدّت يده، وأمسك بيدي، عندئذٍ لن يبقى لي إلّا أن أمسك يده، وأذهب معه إلى المكان الآخر، ولن أحسّ به وهو يعود وحيداً.